دراسات إسلامية

محمد صلى الله عليه وسلم

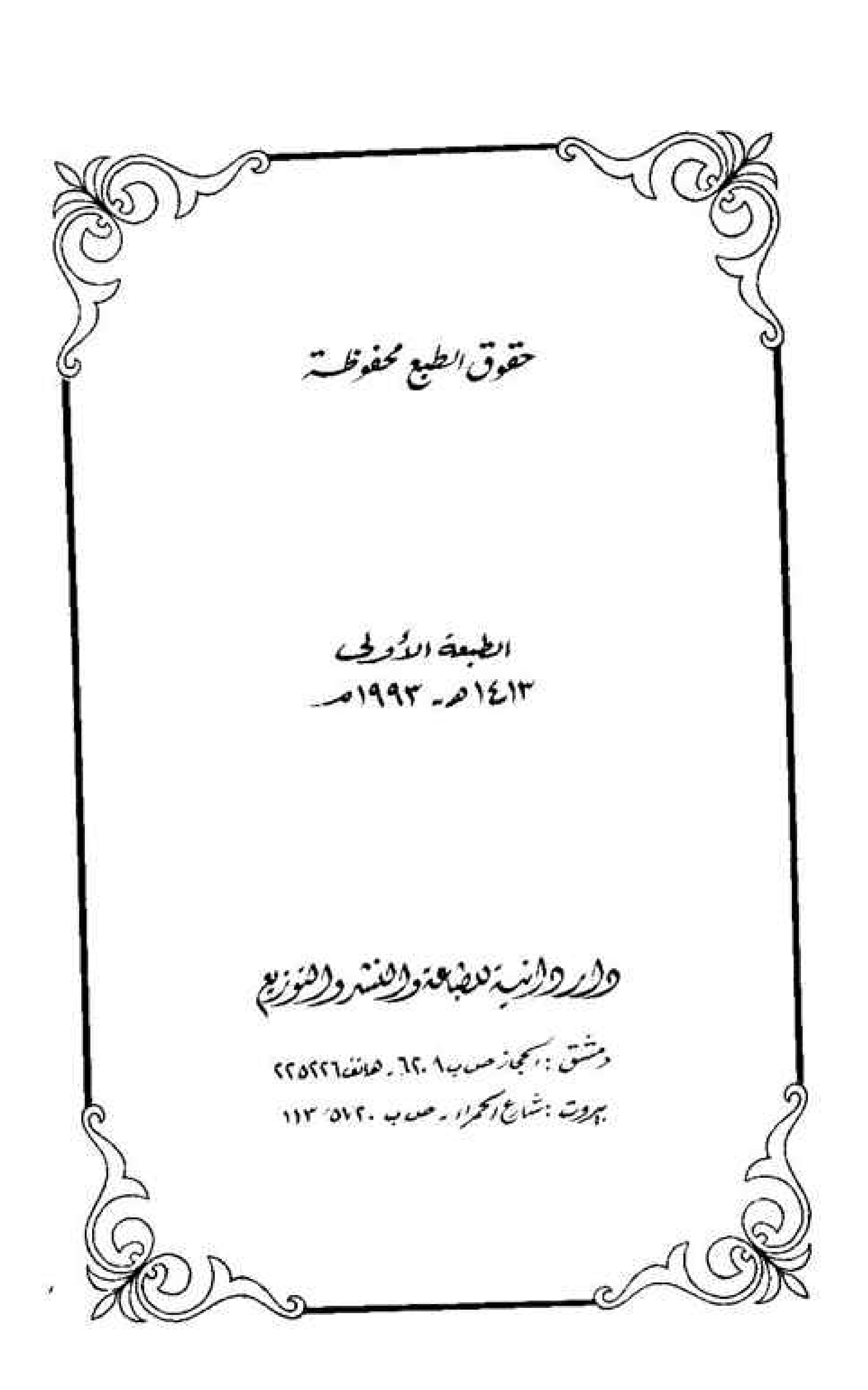
الزوج القدوة

تأليف أحمد مصطفى الحسن



تأليف
أحمد مصطفى الحسن

دار دانية للطباعة والنشر والتوزيع

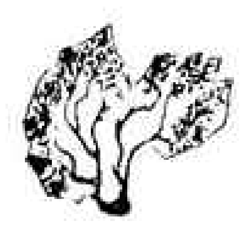


الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الراية للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق : الحجاز ص ب ٦٢٠٩ - هاتف ٢٢٥٢٢٦٢٢

بيروت : شارع الحمرا - ص ب ٥١٢٠ - ١١٣




بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ﴾ سورة الأعراف :الآية « ١٥٧ » .

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ سورة الصف : الآية « ٦ » .

{ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً } سورة الفتح : الآية (٢٩) .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل : حسبي الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ سورة التوبة : الآية « ١٢٨ » .

في الخلق

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1]

﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾[2] .

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلّقةٍ وغير مخلّقةٍ ، لنبيّنَ لكم ، ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدّكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾[3] .

﴿ هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ، ثم لتكونوا شيوخاً ، ومنكم من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ، ولعلكم تعقلون ﴾[4] .

﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[5] .

---

(١) سورة الذاريات : الآية « ٢١ »

(٢) سورة العلق : « الآيات ١ - ٥ »

(٣) سورة الحج : الآية : « ٥ »

(٤) سورة غافر : الآية « ٦٧ »

(٥) سورة الروم : الآية « ٥٤ »

الإهداء

إلى الذين تنسموا الصبا في ظلال النبوة
إلى من وجدوا جلال المعنى في جوامع الكلم
واطمأنّت نفوسهم بهدي النبي الأمي
فنهلوا جملة المعارف من رياض حديثه ﷺ
نهدي هذه الثمرة الطيبة

أحمد مصطفى الحسن

كلمة شكر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين الطيبين •• وبعد •

إن هذا الكتاب الذي أضعه بين أيديكم ، هو بحث تمهيدي لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من « كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة » التي أعتز بشرف الانتساب إليها ومتابعة التحصيل فيها •

وهذا البحث واحد من أربعة قدّمتها للكلّيّة العامرة بالرضى والرضوان ، وكانت بناء على نصيحة أستاذي الدكتور نايف معروف ، فقام بدور الموجه لي والمرشد والدليل والناصح الأمين •

وأشرف على هذا البحث أستاذي الدكتور كامل موسى ، فعلمني كيف أدخل الرحاب الطاهرة باحثاً متتبعاً ، وبيّن لي ما يبيّنه العالم لطالب العلم ، وأجازني على البحث بعد أن تحمّل مني ما تحمّل من سؤال واستدلال ومعرفة غاية أو بيان أو مقصد • وأعترف هنا بجميل الفضل للأستاذين الجليلين الدكتور « نور الدين العتر » وأمين مجلس الأمناء في الكليّة الأستاذ « توفيق حوري » ، وهما من مدّا لي أيادي العون وأرشداني الى أفضل المسالك •

فكانت هذه الجهود كلها عوناً لي في إتمام ما بدأت ، فلهم مني جزيل الشكر ومحبة العرفان ، ولهم منه تعالى خير الجزاء •

مقدّمة

هذا الكتاب لم يكن كما جرت عليه عادة المؤلفين في سيرة الرسول ﷺ ، وهم بين مؤرخ لزمن ، أو متابع لواقعة ، أو مستقرىء لحدث • وإنما جعلته ـ ما استطعت ـ بحثاً علمياً يحاور العقول ، ويسبر أغوار النفس الإنسانيّة ملتفتاً إلى علم النفس حيناً، وما تستلزمه التربية الاسلاميّة حيناً آخر ، بما في ذلك الطبع والفطرة والأخلاق ، وما يمكن أن يؤثر فيها من دعاوى أو فتاوى ليست من فطرتنا ولا أخلاقنا وطباعنا العربية الإسلامية ، القائمة على مكارم الأخلاق ، والمثل العلا •

كل ذلك أوضحته باعتمادي على القرآن والحديث الشريف والتربيةالنبويّة التي هذّبت الأخلاق والنفوس وغرست الشمائل ، فأثمرت أجيالاً حملت نور العلم والهدى والرسالة إلى كل أصقاع المعمورة .

إن الإسلام حقيقة باقية في أبديّة لاتطالها عوامل الفناء ، لأنها فوق القدرات البشريّة وطاقات المخلوقات ، ولذلك فإن شمسها النيّرة لاتغيب ، ولكن الإنسان هو الذي يغيب عنها ، إما قسراً ، وإما تقليداً ، وإما خوفاً ، وتلك بعوامل لاتصيب الذين آمنوا وعرفوا واطمأنوا إلى الحقيقة في جوهرها ، وفي أنفسهم ، ومن أجل ذلك قيّدت الفكرة بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف ، لكي تكون الإجابات واضحة على كل تساؤل مهما كان مبعثه ، وأيّا ماكانت مصادره .

وكانت عندي القناعة التامة الكاملة ، بأن تراثنا التربوي القائم على « الشرعة والمنهاج » في الإسلام ، كافٍ لغيره مكتفٍ بما فيه لايحتاج إلى زيادة ، ولاتطاله الشبهات .

فليست الثورة الفرنسيّة وأفكارها ومواثيقها وأحداثها التي وقعت عام ١٧٩٧ هي بداية الفكر الثوري في العالم .

وليس جان جاك روسو ١٧١٢ ـ ١٧٨٧ هو المنظّر الأول لفكر العالم ، وليس توماس جيفرسون ١٧٤٣ ـ ١٨٢٦ هو صرخة القانون ووثبة الاستقلال في مصائر شعوب العالم ، وليست العبقرية حكراًعلى « وليم جيمس » ١٨٤٢ ـ ١٩١٠ ولا على سنتيانا ١٨٦٣ ـ ١٩٥٣ .

وإن التربية وقضايا التعليم والمكتبات ومهماتها لم تبدأ مع جون ديوي ـ ١٨٥٩ ولامع ميلاد « جيمس جويس ١٨٤٢ » .

لاهذا ولا ذاك . بل إن التربية العربية الإسلامية ، والعلوم المنبثقة عنها هي السابقة لاالمسبوقة ، لأنها تعني : الفتح الروحي الذي يجد الإنسان في ساحته حريته ووجوده وكرامته وحياته ، وتراثنا التربوي والثقافي والفلسفي من أغنى ماشهده العالم على اتساعه وفي كل شؤون الحياة ، وقدمت الدليل فيما عرضته ، سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد الاجتماعي .

وعرضت ضمن هذا البحث أهم المراحل الحياتيّة للجنين وأمه وأسرته وبعض أطوار نموه وكيفيّة معاملته في التربية الإسلاميّة ، ومايجب على الأبوين فعله طبقاً لأصول التربية هذه . مشيراً إلى تعليمه وكيفيّته في هذه المراحل الدقيقة . وغذائه ، وصحة أمه ، والمؤثرات النفسية ، والانفعالات التي يتأثر بها الجنين وأمه والفرق بين النكاح الحلال ، وبين السفاح واثره على الأم الحامل .

وعرضت إلى الحياة الجنسية وفلسفتها تصحيحاً لكثير من المفاهيم خاطئة الوافدة التي تأثر بها وطننا العربي نتيجة لدخول الثقافات الوافدة إليه من خارج الحدود ، والتي تحاول النيل والتشويه من عاداتنا وتقاليدنا وثقافتنا . وأشرت إلى ما يجب أن تتصرّفه الأم مع ابنها والأب مع ابنه ورأيت أنه من الأمور المعاصرة جداً هو التعامل بين الزوجين ، ومن أجل الحياة الهانئة السعيدة أوضحت مايحب الرجل في المرأة ، وماتحبه المرأة في الرجل ، وبينت حقوق كل واحد منهما على الآخر ، وكذلك الأسرة في القرآن الكريم لكي يبين كل فرد حقه والواجب المترتب عليه .

ولعلنا نرى في مجتمعنا الراهن سباقاً لاثبات الذات والتنافس على زمام المبادرة بين المرأة والرجل ، هذه بتعنتها وعصبيتها تحاول التحكم بالرجل وإحكام الحصار عليه ، وهذا بشرقيّته المترمّتة التي تتشدد في الأمور ، محاولة استعباد المرأة والاستبداد بها .

فأوضحت جوانب من معاملات النبي ﷺ وأخلاقه في أهله وبيته ، وكيف يتعامل مع زوجاته ، وهذا الفصل ردّ عملي على كل التساؤلات ، وبرهان على أنّ الزوجيّة المثاليّة تقوم على زوج مثالي وامرأة مثاليّة تطبعهما الأخلاق ، وتؤسس أخلاقهما على القرآن ، في طهارة في الخَلْق والخُلُق ، ومعرفة بالدور الذى خلق له كلّ رجل وكل امرأة ، وكيف يمارس هذا الدور .

إنّ كل مانحتاجه هو العلم بالتراث والمعرفة بالماضي القدوة ، فليس الزوجان في ميدان سباق مادي أو معنوي ، وإنما هو تسابق الطاعة المتبادلة ، وتفهم طبيعة كل منهما لصاحبه ، فليس أقرب منهما وداً ورحمة لكي يكون لصاحبه سكنا يستقر به ، وتقرّ عينه فيه .

إنها تقوم على الإيمان ، وتؤسس على السلوك المستقيم الملتزم ، وتنفي كل الشوائب والعثرات التي تعكر صفو الحياة : هكذا ببساطة وهدوء وطمأنينة ، ولاتحتاج المسألة إلى فلسفات التائهين في عبثيّة لاتنتهي ، فحياتنا جمع سعادتها كتاب واحد هو القرآن الكريم وما جاء به الرسول الكريم محمد ﷺ ، فمنه لنأخذ كما أخذ الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم ، ومنه لنتعلم ونبعث مكارم الأخلاق من جديد . وفي الختام : هذا عملي وهذا جهدي ، فإن بلغت الغاية فتلك ما أبتغي ، وإن لم أبلغها لتقصيري فابلغها أنت بعلمك وعقلك وتدبرك ، وحسبي أنني بدأت وأضأت الطريق مااستطعت . وفي كلّها أبتغي فضل الله ورضوانه .

والحمد لله رب العالمين .

أحمد مصطفى الحسن



الفصل الأول

١ ـ بداية لا بد منها
٢ ـ وقفة قصيرة
٣ ـ من خالفوا وحق عليهم القول
٤ ـ مكانة المرأة قبل الاسلام
٥ ـ نكاح الجاهليّة
٦ ـ في فلسفة الزوجية والجنس
٧ ـ المرأة الانسانة في الاسلام
٨ ـ بين يديه ﷺ
٩ ـ الحمل ومراحله في القرآن الكريم
١٠ ـ صحة الحامل وغذاؤها
١١ ـ الولادة ـ التسمية ـ الرضاعة
١٢ ـ الرضاعة والطفولة
١٣ ـ في التربية
١٤ ـ تربية الطفل عند الغزالي

بداية لابد منها

تمهيد

أريد أن أعترف منذ البدء بعجزي عن استحضار الحقبة الزمنية التي حتضنت الحياة الزوجية للرسول الكريم محمد ﷺ . وهذا العجز ناجم عن سببين :

الأول : أن المعرفة الكلية بطبيعة المرحلة الفائتة ، تحتاج الى استحضار التاريخ ودعوته من جديد ليمثل أمامنا وهو يحمل كتاب الأيام الخوالي ، باسطا بين أيدينا مادته على اتساعها ، ولكي نتعرف المسارب والكوى ، ونحدق بالعظمة المطلقة التي كانتها حياة محمد ﷺ ، وماقامت به ، والكيفية التي سلكتها الأسوة الحسنة . وماأظن الأمر بالهين ولا باللين ، حتى ولو جرّد الباحث حد العزيمة ، واستنفر أبعاد الإرادة ، وأفرغ كل كوامن القدرة الكامنة عنده . لأن الاحاطة بالعظمة النبوية لم تحص إلا في كتاب الله (القرآن الكريم) والكتاب وحده هو القادر على إعطاء الحقيقة جوهرها ، وهذه أيضا تحتاج الى سعة العلم وفسحة الزمن والتفرغ الكامل لها ، ولاأراها تدرك أوتكون ، في عصرنا الذي تتدافع فيه المشكلات وتتعقد ، حتى أصبحت الحاجات فيه طوقاً يحيط بالمرء من كل جانب .

الثاني : أن الحياة الزوجية التي ركز ثوابتها محمد ﷺ ، وماكانت عليه وماقامت به ، لم تكن طفرة في أمة ، أوحالة متقدمة حضارية في شعب ، وإنما هي هدم لموروثات جاهلية عاشتها الأمة قروناً طويلة حتى أصبحت قوانين تضبط سلوك الأفراد والقبائل .

وهي زرع اتسع له صدر الكرة الأرضية على اتساعه ، تغير بها نمط الحياة كلها ليس في (أم القرى) وحدها ، ولاالأمة العربية على امتداد

جغرافيتها ومساحتها السكانية فحسب ، وإنما على امتداد العالم كله ، ففي كل مكان تغيّرت الحياة على قدر ما نهلت من الإسلام نقلاً كان أم عقلاً .

ولو كانت هذه الحياة الزوجيّة الجديدة في قيمتها ومسلكياتها وسننها في مجتمع مثقف لهان الأمر ، لأن المجتمع المثقف يفترض أن يكون متسلحاً بالعلم ، متحصناً المعرفة ، متمسّكاً بقواعد أخلاقية تسهل الكثير من الصعاب فتذللها ، وترتقي بالمفاهيم فتبسطها للأذهان مقبولة على أكثر الوجوه .

ولكنها وجدت في مجتمع أمي ، لايعرف الحساب ولاالكتاب كما تستوجبه المعرفة وهذا ما أوضحته الآية الكريمة : ﴿ هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيّهم ويعلمّهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[1] .

وروي عنه ﷺ قوله : « بعثت إلى أمّة أميّة » وفي حديث آخر : « نحن أمّة أميّة لانحسب ولانكتب . الشهر هكذا وهكذا وهكذا (مشيراً بأصابعه) »[2] .

ولعل الأمية في سيدنا محمد ﷺ تعني : أنه لم يتلق العلم على أحد سوى الله سبحانه ، وأمية النبي ﷺ معروفة لاتحتاج إلى إثبات ، حيث يقول تعالى : ﴿ الذين يتبعون النبي الأمي ﴾[3] ويقول : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ﴾[4] وهنا غاية العظمة ، وقمة الاعجاز .

لأن الأمية عند النبي الأمي ﷺ هي ذاتها حالقة الريبة وحارقة الشك ، أثبتتها المعجزات ، وأكدتها الدلائل حتى تهاوت الوثنية تحت أقدام

(١) سورة الجمعة : الآية « ٢ »

(٢) تفسير القرطبي ٢٩٨/٧ البخاري ٦٧٥/٢ رقم (١٨١٤) بلفظ « إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرةً تسعة وعشرين ، ومرة ثلاثين .
مسلم بلفظه كما في صحيح البخاري ٧٦١/٢ في كتاب الصيام تسلسل ١٥ رقم الحديث ١٠٨٠

(٣) سورة الاعراف : الآية « ١٥٧ »

(٤) سورة الاعراف : الآية « ١٥٨ »

جنود الحق . يقول تعالى : ﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون ﴾[1] .

لقد اعتادت المجتمعات أن تعجب بنابغة أو عالم التهم صفحات الكتب بحثا واطلاعا حتى ارتقى بعلومه الى درجة اكسبته عناية بأخباره ، واهتماماً بنتاجه ، ولكن رسول الله ﷺ تأمل بعقله الثاقب المنير ، وقلبه العامر البشير ، فعرف مالم يصل الى عقول النوابغ ، ومالم يتناه اليه تأمل الفلاسفة ، ومالم يهتد اليه قلب رقّ أو ذهن أشرق .

الله سبحانه أقرأه فعلّمه الكتاب والحكمة ، وعلّمه من لدنه ماكان به رسولا نبيّا وبشيراً وهاديا ونذيراً . فأغناه عن علم البشر وجدل الفلاسفة ، ونبوغ الشعراء ومنطق البلغاء ، وغاية الفصحاء .

والنبي الأمي ﷺ ، أرسل إلى مجتمع أمي ، في أمة أمية ، فماذا حصل ؟ تزوج الأمي ، وكان أسوة في زواج لم يكتسب وسائل نجاحه وأسلوب معايشته للزوج والمجتمع الأمي عن علم وضعي أو فكر فلسفي ، فعلى تعدد الزوجات تترتب أمور كثيرة ، وخاصة في مجتمع قريش ، وأعمامه وأهله هم حملة السيوف ضد دعوته .

تزوّج في مجتمع امتزجت فيه الأميّة ببداوة معتزّة بذاتها ، مشبعة نفسها باعتقادات جاهلية موروثة مستعصية على التغيير في أغلب الأحيان والحالات . يضاف الى ذلك النظرة الفوقية التي يحملها زعماء قريش والعرب من حولها ، حين كان المال هو المقياس والضابط الذي يتحكم بالمعاملات والعلاقات ، ولقد « تعاونت هذه الأمية مع البداوة على ابعاد العرب حينذاك عن الحضارة والعلم ، فلم تكن لهم حضارة تقوم على اسس يعرفونها ولاعلوم مدونة في كتب يدرسونها ، وليس معنى هذا أنهم تجردوا من كل فضل . بل كان لهم نصيب من ذلك وان اختلط فيه الطيب بالخبيث »[2] .

(١) سورة العنكبوت : الآية « ٥٨ »

(٢) المدخل في التعريف بالفقه الاسلامي ـ د محمد مصطفى شلبي ص ٣٩

« وقد أورثهم استقلالهم أنفةً وعزةً واعتداداً بالنفس وحريّة جاوزت الحد حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين »[1] .

وكان وأد البنات دليلا على الاستهانة بالمرأة ومكانتها قبل الإسلام ، وكأنها ماكانت إلا للمتعة واللذة والعبودية للسيد الزوج ، المالك لنفسها وجسدها وحريتها ، والمتصرف بها كما يحلو له ، فله الأمر وعليها الطاعة . وما أظن أحداً يجهل دور العقيدة في توجيه العلاقات الاجتماعية ، فهي التي تنتظم فيها خيوط التواصل ، وتنصهر الرغبات الفردية والكلية بناظم العقيدة ، الذي يرتقي بها أعلى درجات الانسانية ، فتذوب الفردية في كل اجتماعي ملتزم ، ويتيقظ الوعي الاجتماعي بمجمله إلى ضرورات أفراده فيجعلها موضع اهتمامه وكفالته . وهذا ماافتقر اليه العرب في تلك الفترة ، وحتى الحنفاء لم تنضج لديهم الرؤية العقيدية ، ولاعرفوا المنهج الذي يجعل « المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا كما عرفه الإسلام . الا أنهم في جانب من طباعهم كانوا مستعدين لفعل الخير ، مع اعتزازهم بأنفسهم ووثنية الأغلبية الساحقة منهم ، مع قبلية جعلتهم يقدسون تقاليد القبيلة ونظامها ولايخرجون عنها .

في مثل هذا الوضع وهم يتبادلون الغزوات ، ويتفانون في الثار ، ويتسابقون ويتنافسون من أجل الرياسة ، مضافا اليها فصاحة في اللسان ، وحضور في البديهة ، واهتمام في الشعر والبلاغة والخطب ، وهم اذا أثيروا شهروا السيوف وجعلوها الخصم والحكم ، حتى أصبحت الحرب نظام الحياة ، والاقتتال العادة اليومية التي يتدرب عليها الأفراد منذ النشأة والفتوة ممتدة إلى نهاية الحياة .

فكيف والحالة هذه استطاعت « الحياة الزوجية » للنبي ﷺ أن تصعد بالمجتمع وتدفع بكل الموروثات الهجمية فتخلص منها المجتمع ، وتضع قيم الأخلاق الحميدة موضع التنفيذ العلمي ، متسلحة بالعلم والمعرفة ، وتبدأ

---

(١) فجر الاسلام - أحمد أمين ص ٢١١

دورة التغيير والتبديل والارتقاء ؟ وكيف ارتقى بالانسان الجاهلي ، العصبي ثائر ، الذي لااعتزاز عنده فوق النفس والقبيلة ، والذي ينظر اليها على نها أعلى مراتب العزة والشرف ؟ ألا يستطيع هذا الدين أن يصل بانسان لعصر - اذا تأسى برسول الله ﷺ - إلى أعلى ماتنشده البشرية من تقدم في لقيم والعلم والحياة والنظام ؟

ألم يضع النبي ﷺ قواعد الطهارة التي تحمي النفوس والأبدان ؟

ألم يضع للناس جميعا أسس الصحة العامة ، التي تنظم الحياة الجنسية بحيث تشبعها وأصحابها من ناحية ، وتحمي الأجساد من مسالك السوء وأتباعها ، بحيث لا تخشى « الايدز » ولا تخاف من ممارسة الحق الجنسي في الحياة ؟



وقفة قصيرة

مايزال رجال الفكر العربي والإسلامي يطمحون إلى بلورة التوافق بين العلم الحديث بما وصل اليه من مكتشفات ومخترعات ، وبين الحقائق الكونية والشرائع الاجتماعية التي جاء بها القرآن الكريم ، محاولة منهم ، اعادة العروة التي تربط الانسان المسلم وضميره وتعيدهما الى وحدة متمكنة متثبتة موقنة ، لكي يصبح كلا واحدا لا يداخله الشك ، ولا تتنازعه أسباب الفساد ، ولا تنفذ اليه الغوايات والأهواء .

ان الانسان اليوم ، يعيش انفصاما حقيقيا ، بحيث لم يعد يؤلف بين نفسه وفكره ومعتقده ومسلكه ، والتزامه الاجتماعي والعقيدي ، فأصبحت غربته عن نفسه وفي نفسه لا تقل عن غربته في أمته ومجتمعه ، وأصبح ممزقا بداخله ، تعصف به المغريات ، وتنوشه الحاجات وعدم الاستقرار ، وتنال منه الثقافات العصرية ووافداتها التي تستهدف كيانه ووجوده في أكثر ماجاءت به ، وكل هذه كانت بسبب دعاوى العلم الحديث ، وادعاء الحضارة ، وما جرت ذيولها العابثة بفكره حيناً ، والمستهزئة بقيمة الانسان وقيمه أحيانا ، وبسبب ضعف النفس ، والتوجيه ، وهشاشة المناهج الحياتية في أغلب الحالات .

ولقد نراه الآن يطلب ـ بينه وبين نفسه ـ ما هو أبعد وأعمق من النهضة السياسية والاجتماعية ، انه يطلب السيادة والاستقلال ، ويطلب وحدة نفسه وملكاته وسلوكه ، ويطلب كيانا يجعله ثابتا في وجه الشكوك التي بثتها فيه ديول الثقافة المسماة بالثقافة العصرية ، ويحميه من انجرافات المسالك والمسارب الموجهة اليه بالقصد ، وهي تغريه ببريقها ووسائلها الترفيهية المزعومة ، وما هي في حقيقتها الا حبال تحاول سحب نفسه وقدمه وعقله ، وزلزلة كيانه وافقاده الثقة بنفسه وأمته ، ولتجعله يشك بكل الحلول ، فييأس من المستقبل والأمة .

مكانة المرأة عند الأمم السابقة

من الغريب في مجتمعنا العربي الإسلامي ، أننا ننسى أنفسنا في زحمة الأحداث والمستجدات وننسى معها تكويننا الثقافي وفكرنا الإسلامي الذي ورثه لنا أجدادنا العرب ، في الوقت الذي نجد فيه الباحثين الغربين يفطنون الى مانسيناه أو تناسيناه ، ويذكرون بما كان للعرب من حضور سياسي وثقافي واجتماعي في كل أصقاع العالم ، دون ان يتنكروا - في الأغلب - لهذا الحضور ، والوجود الثابت في أركانه ، المستمر في ضيائه وعطائه إلى قيام الساعة. تقول الدكتورة « اليس ليختنستادتر »[1] وهي ألمانية الجنسية :

« إن المسلمين أرادوا مطلبا أكثر من مجرد النهضة السياسية ، إذ كانت رسالة الإسلام الدينية تتطلب التمكين والتثبيت أمام هجمة الشكوك العصرية التي جاءت في ذيول العلم الحديث » .

ثم تقول : « وأدرك محمد عبده بعد بحثه في أسباب انتشار الشكوك بين شباب المسلمين : أن العقيدة الدينية تتطلب اعادة التوجيه كي لا تنفصم العروة الوثقى بين المسلم وضميره »[2] .

ثم تقرر الكاتبة أمرا يستوقف كل بصيرة هادية فتقول : « فإذا كان العلم قد أثبت حقائقه بالتجارب أو المعادلات الرياضية ، فالنبي - ﷺ - قد

(١) هي صاحبة كتاب : الاسلام والعصر الحديث ، وهي سيدة ألمانية درست العلوم العربية والاسلامية في جامعة فرانكفورت ثم في جامعة لندن ، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرق الأدنى والأوسط نقلا عن كتاب الهلال « مايقال عن الاسلام لعباس محمود العقاد » - العدد ١٨٩ في شهر شعبان ١٣٨٦ وديسمبر ١٩٦٦ ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) نفسه .

تلقاها بالوحي من عند الله العليم بكل شيء ، وأفضى بها الى الناس في رسالة النبوة الرفيعة وآياتها البليغة »[1] .

ولو نظرنا الى واقع الحال الذي وصل اليه العرب والمسلمون ، لوجدناهم يقلدون الغربيين والأوربيين في كل شيء حتى في أخلاقهم وعاداتهم ، فأصبح التقليد يتنازعهم ، وقضايا الزواج والعلاقة الزوجية وممارساتها ـ وهي ماتهمنا في البحث ـ نجدها على الطريقة الأجنبية ، لاتحكمها شريعة ، ولايوجهها خلق ، حتى أصبح عصر السرعة منافسا « لعصر الصرعة » الذي استهوى الجيل الى الهوى والضلال ، وأصبح « الفيديو » متعة الأنظار وموضع الأبصار ، والمجلات والكتب الجنسية مصدرا لثقافة الجيل ولكن نحو التفسخ والانحلال ، وتكاد الرذيلة تغلب الفضيلة ، فانتشرت الأمراض الاجتماعية ، وكان من نتيجتها تفشي الأمراض الفتاكة التي استعصت على الطب فلم يجد وسيلة لمكافحتها والقضاء عليها ، ونحن نعلم أن الإسلام الذي ربى الأفراد على الفضائل وهذب النفوس بالأخلاق ، وأقام الحياة على الطهارة والنظافة ، هو ذاته الإسلام الذي يقف الآن في وجه هذه الآفات المدمّرة للعقول والأبدان ، وهو الذي نظم العلاقة بين الجنسين ، فحفظ كرامة الرجل والمرأة ، وساوى بينهما بما يرضي الله وبما يحقق لهما السعادة والمتعة،دون أن يتعرض واحد منهما الى أذى في بدنه أو نفسه .

إن فوضى العلاقات الجنسية بدأت في الغرب الذي يزعم أنه وصل إلى أرقى درجات الحضارة ، وأنه هو الذي حقق السبق في الاكتشافات العلمية ، ولكنه لم يستطع أن ينقذ مجتمعه من الأمراض الفتاكة التي أصابت الملايين فيه ، وعجزت كل وسائله العلمية عن ايجاد الدواء ، وهذا أمر لايحتاج إلى اقامة الدليل ، فمؤتمرات الطب العالمية كلها تشهد بذلك .

انه لمن المسلم به أنّ الزواج موجود ، والحياة الزوجية موجودة منذ أن

(١) نفسه .

ستشعر الانسان عواطفه وأحاسيسه وميوله الغريزية ، وهذه لم يحرم منها أي من الكائنات الحية من عالمي الانسان والحيوان ، فالغريزة موجودة منذ الخلق في الأزل ، كما أن العقل موجود أيضا ، ولكن نوع طريقته ، ونمط ممارسته نعم العقل ، والغريزة ، وذلك طبقا لتكوينه الذي كونه الله عليه ، وتناسبا مع طبعه ونوعه .

والرغبة الجنسية بين الذكور والاناث كانت قد وجدت منذ خلق سيدنا آدم عليه السلام ، وكانت بداية تكوين أول أسرة في حياة زوجيّة أوليّة ، حملت الخليّة الأولى التي انشطرت ، فكان منها ماتمّ وتكاثر من بني آدم وحوّاء وذلك منذ ﴿ ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾[1] .

وكانت العلاقة الجنسية ، والحياة الزوجية ، موجهة شرعا ، وبالتوجيه الإلهي المباشر ثم عن طريق الصحف والكتب التي أنزلت على سيدنا آدم عليه السلام ثم أولاده من بعده ، والأنبياء والرسل من بعدهم - صلوات الله عليهم جميعاً - لتكون هذه الصحف والكتب دلائل تعصم من الضلال ، وترشد الى سواء السبيل .

وقامت العلاقات الزوجية بين المؤمنين بالكتب والرسالات السماويّة ، على تعاليم الاسلام منذ بدء الارسال ، فكانت تشهد الصحة والصدق والمساواة ، وكانت تطبق الشريعة التي اختارها الله لعباده في نظام وعدل وطهارة ورقي .

وأما الأقوام الذين لم يأخذوا بتعاليم الرسل وما جاؤوا به ، ساد بينهم الفسق والفجور ، وعم الزنى واللواط ، واستشرى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وعرفت هذه الأقوام همجية ومشاعية جنسية لارابط لها ولا ناظم ، لا ماعتادته وارتضته لنفسها من فوضى وعبث .

وكانت تختلف الحياة الزوجية ، وطريقة التواصل الجنسي ، والمعاشرة

---

(1) سورة البقرة : الآية « ٣٥ »

بين الذكر والأنثى من قوم الى قوم لانها كانت خاضعة للتقاليدالتي ألفوها من ناحية ، ولأسس التشريع الخلقي لكل جماعة من الجماعات من ناحية أخرى ، وعلى قدر ما أخضعت هذه الجماعات نفسها لشرائع نظمت بها حياتها ، وما سنّت لنفسها من نظم ارتأت فيها ما يناسبها ، فربما كانت قوانين ، أوعادات أو تعاليم ، أو غيرها مما تعارفت عليه هذه الشعوب .

ولقد وصلت المرأة عند الأمم التي لم تسلك طريق الهداية مع الانبياء والرسل الكرام ، الى حالة أسوأ ما تكون ، ومكانة أحطّ ما تكون .

ففي « فوتونا » و« هواى » عند الانسان البدائي القديم ، معظم الناس لم يتزوجوا اطلاقا ، وأهل « لوبو » تعاشروا في إباحية وبغير اختيار أو تحديد[1] . « وهناك شعوب أخرى ، الرجال فيها يواطئون النساء بغير تمييز ، بحيث لم يكن لامرأة زوج معلوم ، يقول مالينوفسكي وسألت من يكون والد طفل ولد سفاحاً ، أجابوني كلهم بجواب واحد : انه طفل بغير والد ، لأن الفتاة لم تتزوج ، فلما سألت في تعبير أصرح : من ذا اتصل بالمرأة اتصالاً فسيولوجياً فأنسلت؟ لم يفهموا سؤالي . . . . ولو أجابوا لكان الجواب إنه الشبح هو الذي وهبها طفلها »[2] .

وقد يستدل القارىء على مثل هذه الحالات عند شعوب كثيرة ، وأمم متعددة ، وسيجد أن المرأة خادمة ، وأمة ، ومتعة ولا غير ، وانها كانت رقماً مهملاً لا قيمة له ، ولايدخل في الحساب .

« فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشبان بالشابات اتصالاً حراً دون أن يكون ذلك عائقاً للزواج وكذلك عند قبيلة « بابوا » في غينيا الجديدة ، تبدأ الحياة الجنسية في سن مبكرة جدا ، والقاعدة قبل الزواج هي « الشيوعية الجنسية » وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج في قبيلة السويوت في سيبيريا و« الجوروت » في الفيلبين ، و« أهالي بورما العليا » ، و« الكفيروا ليموشمن » في افريقيا وقبائل « نيجيريا » و« ويوغندا»

(١) قصة الحضارة ١/٧٩ ـ ٨٠ وما بعدها .

(٢) نفسه .

و« جيورجيا » الجديدة وجزائر « مرى » وجزائر اندمان ، وتاهيتي ، وبولينزيا ، وأسام وغيرها[1] .

وعند قبيلة « داماترا » فيما يروى « سيرافرانس جولتن » : يتبدل الزواج مرة كل اسبوع تقريبا ، وقلما استطعت أن أعرف إلا بعد استقصاء وبحث من ذا كان زوجا مؤقتا لهذه السيدة أو تلك في وقت معين »[2] .

وهذه الفوضى لم تكن في قارة من القارات دون اخرى ، وإنما كانت كما يقول ويل ديورانت « عامة شاملة ، فمن يعطى لقب الشريف ، الذى كان ومايزال يمثل السلطتين التشريعية والتنفيذية في مقاطعته ، هذا الشريف هو متصرف بكامل الحقوق ، وعلى الرعايا الطاعة المطلقة له ، فهو يمثل ، حقوق القبيلة القديمة ، وذلك الحق هو : انه يجوز للشريف أن يفض بكارة العروس قبل أن يؤذن للعريس : بمباشرة الزواج »[3] .

وليس الأمر هذا في أوربا أو أفريقيا ، أو القارات الأخرى المذكورة ، ولكن الأمر ينسحب على اتساع الكرة الأرضية ، من الشعوب التي لم تحمل بلاغ الرسل والأنبياء ، حتى أن « ديورانت » قد عرض للأمم الأخرى بما هو أشبه وأدهى من حيث التقاليد والأعراف السائدة .

ففي « التيبت » مثلاً يذكر . « انه كانت العادة ان تتزوج طائفة من الأشقاء طائفة من الشقيقات ، بحيث تقوم « الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، لكل رجل أن يعاشر كل امرأة »[4] .

هذه لوحات تدل القارىء على الحياة الجنسية عند أمم وقبائل لم تشملها هداية الله ، ولم تعمل عقلها في التدبر والبحث واتباع الهدى . وليس الفساد في هذه القبائل وحدها ، وانما تدلنا كتب التاريخ أنه حتى في زمن الأنبياء ، وجد المكذبون والمفسدون .

---

١) نفسه .

٢) نفسه .

٣) قصة الحضارة ٦٨/١ .

٤) قصة الحضارة ٦٩/١ .

من خالفوا وحق عليهم القول

قوم لوط عليه السلام حين كثرت بينهم الفاحشة ، والشذوذ الجنسي ، وهو أمر مناف لإنسانيّة الإنسان ، ومتعدٍ لحدود الله التي أرادها سبحانه وتعالى أن تكون ضوابط تحمي الإنسان من نفسه وغيره . وحمايته من نفسه في أن دلّه على الخير وفعله لما يصلح حاله وحالته في الدين والدنيا والآخرة ، وحمايته من غيره في أن لايتعدّى على الآخرين فيظلمهم ، ولايتعدون عليه فيظلمونه .

فأين بداية القصة ؟ وأين نهايتها ؟ وما هي النتيجة ؟

﴿ ولوطاًإذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾[1] .

وهنا تبلغ إهانة المرأة مبلغاً عظيماً ذهبت بكل كرامتها ووجودها ، وعصفت بأنوثتها وعفّتها وطهارتها ، حين فضّل هؤلاء القوم « اللواط » فيما هو عليه من قذارة وسوء ، وما ينجم عنه من أمراض عرفها عصر المكتشفات العلميّةالحاضر ، ومخالفة صريحة للفطرة الإنسانيّة ، وهي حالة أشبه ما تكون بحالة آكل ثمرة جميلة الشكل طيبة الرائحة بديعة اللون ، ولكن بعد أن غمسها في ماء آسنٍ زمناً ثم أخرجها فأكلها وترك الأكل الطيب من الطعام الطيب .

وقالالقوم الذين تغيرت طباعهم الإنسانيّة إلى العنت والفسق والفجور والإسراف في إتيان الرجال ، وهجر النساء التي أفقدوها كل شيء ، وسلبوها حريتها وكرامتها وأهانوها شرّ الإهانة ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن

(١) سورة العنكبوت : الآية ، ٢٨ ،

قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[1] .

ما أعجب هذا وما أغرب ، ﴿ إنهم أناس يتطهّرون ﴾ ولذلك استحقوا الإخراج من قرية « سدوم »[2] . فماذا كانت النتيجة ؟ . كانت أن شهد الله على فعلهم لوطاً عليه السلام ثلاث مرات ، والقصة باختصار هي :

« لوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع ابراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل « سدوم » ـ بفلسطين ـ وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزّ وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولاتألفه ولايخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار في قوله : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

---

(1) سورة الأعراف : الآية « ٨٢ »

(2) سدوم : قرية قوم لوط في فلسطين . قال ياقوت في معجمه ٣/٢٠٠ وما بعدها : قال أبو منصور : مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سدوم : وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمفسد : إنما هي سذوم بالذال المعجمة . قال : والدال خطأ ، قال الأزهري وهو الصحيح وهو أعجمي ، وقال الشاعر :

كذلك قوم لوط حين أضحوا ... كعصف الريح في سدومهم رميم

وقد ذكر أمية بن أبي الصلت سدوم فقال:

راودوه عن ضيفه ثم قالوا ... قد نهيناك أن تقيم قراها

عرض الشيخ عند ذاك بناتٍ ... كظباء بأجرع ترعاها

غضب القوم عند ذاك وقالوا : ... أيها الشيخ خطة نأباها

أجمع القوم أمرهم وعجوز ... خيب الله سعيها ورجاها

أرسل الله عند ذاك عذاباً ... جعل الأرض سفلها أعلاها

ورماها بحاصب ثم طين ... ذي حروف مسوّم إذ رماها

قال : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط ـ عليه السلام ـ . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق : لولا أنّ الله عز وجلّ قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكراً يعلو على ذكر ، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل ، لأنه وضع الشيء في غير محلّه ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى :

﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾(١) ، فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهنّ ﴿ قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾(٢) ، أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ، ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا في أضيافك ، وذكر المفسرون أنّ الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهم ببعض(٣) أيضاً .

وأما شهادة لوط عليه السلام على قول قومه وفعلهم : « قال معمر بن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال : كان ابراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول : أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته ، فلم يطيعوه ، حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له ، فدعاهم إلى الضيافة ، فقالوا : إنا ضيوفك الليلة ، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألاّ يعذّبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات .

فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض شراً منهم أين بكم ؟ إلى قومي وهم أشرّ

---

(١) سورة الحجر : الآية « ٧١ »

(٢) سورة هود : الآية « ٧٩ »

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٠ ومابعدها

خلق الله ، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال : احفظوها هذه واحدة .

ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال : أما تعملون ما يعمل أهل هذه القرية . ما أعلم على وجه الأرض أشرّ منهم ، إن قومي أشر خلق الله . فالتفت جبريل عليه السلام إلى الملائكة فقال : احفظوا هاتان اثنتان ، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم ، فقال : إن قومي أشر خلق الله . أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شراً منهم . فقال جبريل عليه السلام للملائكة : احفظوا هذه ثلاث . قد حق العذاب .

فلما دخلوا ذهبت عجوزه عجوز السوء فصعدت فلوّحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعاً قالوا : ما عندك ؟ قالت ضيف لوط ما رأيت قوماً قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحاًمنهم .فهرعوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب ، فدافعوه طويلاً ، وهو داخل ، وهم خارج يناشدهم الله ويقول : ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ فقام الملك ـ يقول فشده ـ واستأذن جبريل في عقوبتهم فأذن الله له ، فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء ، فنشر جناحه ـ ولجبريل جناحان ـ وعليه وشاح . . . . قالوا يا لوط ﴿ إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك ﴾[1] امض يا لوط ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب ، فخرج إليهم ، فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم فصاروا عمياً لايعرفون الطريق ، ثم أمِرَ لوطٌ فاحتمل بأهله في ليلته ، قال : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ .

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل منضود * مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[2] . . . .

وقال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم

(١) سورة هود : الآية « ٨١ »

(٢) سورة هود : الآية « ٧٨ »

بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن ، قال : ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها .

وقال قتادة بلغنا أنّ جبريل اخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء ، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ثم دمّر بعضها على بعض ثم اتبع شذاذ القوم صخراً ، قال : وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى في كل قرية مائة ألف ، وفي رواية ثلاث قرى ، الكبرى منها « سدوم » قال : وبلغنا أن ابراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول : سدوم يوم هالك .

وقال محمد بن كعب القرظي : كانت قرى قوم لوط خمس قريات : سدوم وهي العظمى ، وصعبة ، وصعود ، وغمرة ، وروحاء [1] .

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السّيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فاتقوا الله ولاتخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا : لقد علمت مالنا في بناتك من حقّ وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ماأصابهم إنّ موعدهم الصُبح أليس الصُبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسوّمةً عند ربّك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[2] .

---

(١) راجع القصة في تفسير ابن كثير ٢/٤٥٢ ومابعدها .
(٢) الآيات من سورة « هود » .

مكانة المرأة عند العرب قبل الإسلام

لم تعرف البيئة العربيّة قبل الإسلام نظاماً واحداً يحدد العلاقة بين الرجل والمرأة ، أويكبح من جماح الرجل وقسوته وظلمه للمرأة ، فهي للمتعة حين الطلب ، وللرغبة كلّما وجب ، من وجهة نظر الرجل .

ففي الوقت الذي يحق للرجل فيه أن يتزوج عدداً غير محدّد من الزوجات ، دون أن يعترض عليه أحد ، كذلك يحق له أن يطلّق المرأة متى شاء ، وليس للطلاق عنده عدد محدّد من الألفاظ ، لأن الرجل هو المالك المتصرّف ، وهو صاحب الأمر والنهي الذي لايردّ له طلب ، ولا يخالف له رأي .

و « كما تجد بجانب النكاح الصحيح وهو ما يكون بخطبة ومهر وعقد أمام شهود ، تجد أنواعاً وأنماطاً أخرى تمجّها النفوس ، وتأنف منها الطباع السليمة كزواج الأخدان . وهو ـ أي زواج الأخدان ـ أن يشترك جمع من الرجال بامرأة واحدة ، وقد حرّمه الإسلام . ومثله في ذلك « زواج المقت » وهو أن يرث الابن زوجة أبيه بعد موته ، فيتزوّجها شاءت ام أبت[1] .

والولد الأكبر عند العرب قبل الإسلام « أحق بزوجة أبيه من غيره ، فهو يعتبرها إرثاً كبقية أموال أبيه ، فإذا أراد أن يعلن عن رغبته في الزواج منها ، طرح عليها ثوباً ، وإلا كان لها أن تتزوج بمن تشاء »[2] .

وهنا نلحظ أن المرأة تعامل على أنها لاتعد إنسانة ، بل تعامل على أنها من سقط المتاع وقد روى الترمذي في صحيحه[3] : « عن عروة عن

(١) منتقى الأخبار بشرح نيل الأوطار ١٣٥/٦

(٢) نفسه ٢١٤/٦

(٣) صحيح الترمذي ١٦٨/٥

أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان الناس والرجل يطلّق امرأته ماشاء أن يطلقها ، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدّة ، وإن طلّقها مائة مرةٍ أو أكثر ، حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلّقك فتبيني مني ، ولاآويك أبداً . قالت : وكيف ذاك ؟ قال : أطلّقك فكلّما همّت عدّتك أن تنقضي راجعتك .

فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأخبرتها ، فسكتت عائشة حتى جاء النبيّ ﷺ فأخبرته ، فسكت النبيّ ﷺ ، حتى نزل القرآن : ﴿ الطّلاق مرّتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾[1] قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فاستأنف الناس الطّلاق مستقبلاً من كان طلّق ، ومن كان لم يكن طلّق » .

وفي الجاهليّة لم تستأذن المرأة أو تستأمر في الزواج في أغلب الأحيان ، إلى أن جاءالرسول ﷺ فأبطل بعض العادات من مثل « نكاح الشغار » وهو أن يتفق شخصان على أن يزوّج كل منهما قريبته من الآخر ، فتعتبر المرأة مهراً للاخرى ، حتى إذا ماتت إحدى الزوجتين ، يسترد زوجها قريبته من الآخر حتى يزوّجه امرأة أخرى بدلاًمنها[2] . فجاء محمد ﷺ ليضع الحد والفصل في قوله ﷺ « لاشغار في الإسلام »[3] فأبطل هذه العادات وجعل للمرأة حريّة اختيار الزوج ، وجعل لها مهراً لازماً ، كما أبطل نظم الزواج القديم الذي يقوم على الإكراه ، وأقر النوع المعروف وهو مايكون فيه خطبة ، ومهر ، وشهود ، وألغى ما كان منه زنى ، أو قريباً منه ، وأقر أصل الطلاق ، وحدد مرّاته بالثلاث ، بعد أن كان عندهم لايقف عند عدد معيّن[4] .

---

(١) سورة البقرة : الآية « ٢٢٩ » .

(٢) د . محمد مصطفى شلبي : التعريف بالفقه الإسلامي ص ٤٥

(٣) صحيح مسلم ١٠٣٤/٢ رقم ٥٧ في باب النكاح

(٤) التعريف بالفقه الإسلامي ص ٥٨

وليس هذا فحسب ، بل الأدهى من فعالهم ما أخبر به القرآن الكريم عن سوء أفعالهم ، وقلّة عقلهم ﴿ ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون ﴾[1] ولقد نسبوا البنات إلى الله لأنهم يرون في الأنثى الخسّة والضعف والعار ، فلم يرضوها لأنفسهم ، فيختارون الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[2] .

وتبلغ بهم كراهتهم للمرأة حدّاً لم يبلغه حد ، بالرغم من أن ولادتها أمر قضاه الله فكان ، ولايد لأحد فيه ﴿ وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[3] فيكره إذاً أن يراه الناس « أي إن أبقاها أبقاها مهانة ، لايورثها ولايعتني بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها ، وقوله ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي : «يئدها وهو أن يدفنها فيه حيّة كما كانوا يصنعون في الجاهليّة ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟»[4] .

ومن عاداتهم ما عرفناه وبينه القرآن من قضيّة وأد البنات هذه ، حين وقف الإسلام منها موقف الرادع الزاجر في قوله تعالى ﴿ وإذا الموءودة سئلت ٭ بأي ذنب قتلت ﴾[5] وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : إني وأدت بنات لي في الجاهليّة ، قال : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » . قال : يا رسول الله إني صاحب إبل قال : « فانحر

---

(١) سورة النحل : الآية « ٥٨ »

(٢) راجع تفسير الآية في شرح ابن كثير ٢/٥٧٣

(٣) سورة النحل : الآية « ٥٩ »

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٧٣

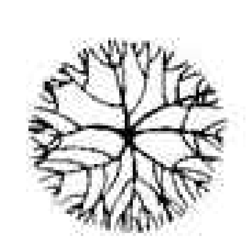
(٥) سورة التكوير . الآية « ٩ »

عن كل واحدة منهنّ بدنة »[1].

ولقد عرفت المرأة عند العرب في الجاهليّة من الحرمان والبؤس ماجعلها أشقى حالاً، وأسوأ معاملة، وأدنى مكانة، وأحط قدراً، فلم تشعر بإنسانيتها حتى جاء الإسلام منصفاً لها محافظاً على كرامتها، مساوياً لها بالرجل الذي طغى على حقوقها ردحاً طويلاً من الزمن، فنهضت تستشعر كرامتها وتأخذ حقها المشروع بحكم الشارع وقضائه.

وكانت العرب لاتورّث النساء ولاالصبيان من أبناء الميت، وإنما يورّثون من يلاقي العدوّ، ويقاتل في الحرب. فشرع الإسلام توريث المرأة وكان ذلك شديداً على نفوس العرب، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت الفرائض التي بينّ الله فيها أنصبة البنت و الزوجة والولد و الأبوين، كرهها الناس، وقالوا: تعطى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى البنت النصف، ويعطى الغلام الصغير. وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولايحوز الغنيمة »[2].

ولما جاء محمد ﷺ نهضت تمارس حياتها، وتقبل بكل مواهبها وعطاآتها مشاركة الرجل في الدفاع عن دينها ووطنها وأمتها، فأصبحت المؤمنة المجاهدة المحاربة، وأصبحت المربية التي تخرج الأبطال إلى ساحات الكفاح من أجل الحياة والحرية وإعلاء كلمة الله.



---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤/٤٧٨

(٢) « محمد ﷺ المثل الكامل » محمد أحمد جاد المولى ص ٢٤٨

نكاح الجاهليّة

عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته : أن النكاح كان في الجاهلية على أربعة أنحاء :

فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليّته فيصدقها[1] ثم ينكحها ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبداً حتى يتبينّ حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع .

ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت وهو ابنك يافلان ، فتسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها .

ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لاتمنع ممن جاءها وهنّ البغايا كنّ ينصبن على أبوابهنّ رايات يكن علماً لمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت فوضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة[2] ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرؤن ، فالتاطه ، ودعى ابنه ، لايمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمداً ﷺ هدم نكاح أهل الجاهليّة كلة إلا نكاح أهل الإسلام اليوم .

---

(١) الصداق : المهر . الحديث في سنن أبي داود ٢٨١/٢ ـ ٢٨٢ . رقمه /٢٢٧٢/ كتاب الطلاق .

(٢) الذين يعرفون الآثار أو الانساب : ويقال « قاف » إذا اتبعه مثل قفا أثره .

في فلسفة الزوجيّة والجنس

ليس من شك في أن جميع الكائنات العاديّة العضويّة تتناسل ، وهذا التناسل يبدأ في مرحلة معينة يسمونها : بلوغ سن النضوج ، أو كما يقال : «النضج والإخصاب» وهذا يبدا بدافع الشهوة لتحقيق اللذة والاستمتاع بها ، لما وهب الله سبحانه هذه الكائنات القدرة على إتمام ذلك الفعل لحكمة أرادها عزّ وجلّ ، من أجل حفظ النوع وبقائه .

والإنسان بما أوتي من قوى عقليّة مدركة اكتملت فيها خلقته وطبيعته التي ارتضاها له خالقه ، فقد تميّز بما وهبه الله من نعم الكمال الشكلي ، وجمال الصورة ، والعقل الذي يميّز ويتدبّر ، والطبع الذي يألف ويأنس ، والمنطق الذي يتفاهم به مع مجتمعه ومحيطه ، والبصر والبصيرة التي يحقق بهما إرادته الإنسانيّة ، ومدركاته التي يكمل بهما معارفه الأخرى ، كل ذلك جعله يتجه إلى المعرفة بجميع فروعها ليحقق التلاؤم مع البيئة التي يعيش فيها ، ويرتقي إلى الحب الذي تدور حول محوره الأسرة وتجتمع ، حيث تلتحم « الأبوّة والأمومة» تحت سقف الزوجيّة بروابط المودّة والرحمة التي بثها الله تعالى فيهما .

وأما الحياة الجنسيّة ، أوالإرادة الجنسيّة في الإنسان تسير في اتجاهين متباينين طبقاً للغرض الذي تؤديه ، وبحسب المؤدي لها :

فإما إلى الارتقاء والرّصانة وتحقيق السعادة الذاتيّة الفرديّة أو الاجتماعيّة ، بالحب والفطرة ، والبصيرة والفهم ، وبالأخلاق والعقل ، وهذا هو المطلوب للإنسان الذي اتصف بالإنسانيّةالتي تقوم على الوضوح ، والقيم العلى ، والأخلاق الحميدة .

وإما حيوانيّة بهميّة تنصرف إلى الفساد والخداع والغموض ، تلك التي

تسبّب اضطراب الموازين الاجتماعيّة ، وتحدث خللاً في القيم والروابط ، وتفتح ثغرات في جسد المجتمع ، يتسرّب منها الضعف فتنعدم الروابط ، وينتشر الأذى ويقترب المجتمع من الانهيار ، إن لم يكن قد وقع بالفعل .

وهنا يمكن القول : إن السعادة المثلى ، تكمن في بلوغ الأماني جميعاً ، وهذه تتحقق في الامتلاك وتحقيق الإشباع في كل مايريده الإنسان ويشتهيه ويرغبه ، وهذا وإن وجد ، فإنما هو وجود نسبي ، وحصول نسبي لايمكن أن يصل إلى الغاية الكليّة .

إن الغريزة وحب التملك والحياة الدنيا ، بما تمليه هذه على الإنسان غير القانع والمقتنع ، إنما تجعله في فهم مستمر ، فكلما تحققت له غاية أو أشبعت فيه رغبة ، انطلقت غاية جديدة تطلب التحقيق ، واندفعت رغبة تنشد الإشباع ، وهكذا إلى مالا نهاية ، لأن الرغبات والشهوات لاتقف عند حدود الزمان أو المكان ، أو ماهو في الحيازة الشخصيّة .

في هذه الحالة تكمن السعادة ـ وهي نسبيّة طبعاً ـ في ناحيتين اثنتين : القناعة بما هو موجود : والرضى بما هو كائن ، وبما هو في متناول القوى والمواهب والإمكانات المقدّرة والمقسومة والمستطاعة ، وبما هو في حدود الامتلاك ، طبقاً لما تنتجه وتحكمه الضوابط الدينيّة والأخلاقيّة .

واللّذة : أو المتعة الجنسيّة ليست سلبيّة بأي حال من الأحوال ، وفي أي وقت أو أي مكان ، إذا كان تحقيقها ضمن الحدود المعروفة في الحياة الزوجيّة ، أي في حدود الامتلاك الشرعي التي لا يتضرر بها أحد من بني لبشر ، وبشرط توفّر التكافؤ الجنسي الجسدي والزمني والمكاني ، وأهم من هذا وذاك ، توفر التوافق في الدافع والحب والتقبل بين طرفي المعادلة الجنسيّة

نقول هذا لأن المتعة الجنسيّة أو اللّذة بالمعنى البشري ، إنما هي صادرة عن تكامل الفعاليات الغريزية ، والانسجام التام بين الوظائف العضويّة الحسيّة الظاهرة ، وغير العضويّة مثل الشعور بوجوب تحقيق اللّذة ، لإطفاء الظمأ الناجم عن الحاجة إلى الجنس ، وتلك موجودة في تكوين الإنسان

تعمل في آلية لاتكبحها إلاّ إرادة الإيمان وفعله .

وقد وجدت هذه في الإنسان ليحقق غرضين غير التناسل والتكاثر النوعي ، وهما : أولاً : تحقيق المتعة المشروعة بالفطرة والشرائع والطبيعة الإنسانية ، التي تحمي وتزيد من قوة الروابط كالألفة والمحبّة والودّ ، وتبعث في النفس السرور والارتياح والقوة في حفظ الترابط بين الجنسين ، مما يضفي جوّاً من السعادة ، وبما يحافظ على العفة والطهارة والأخلاق الفرديّة ، وصون القيم والعلاقات الاجتماعية التي تتأثر بالفعل وردود الفعل ، وبالانفعال الجنسي أيضاً ، وخاصة حين يطغى التفكير بالجنس على التفكير بترسيخ القيم .

والثاني : الاستجابة للرغبة الغريزيّة التي تندفع بعوامل الإثارة الناشطة ، والتي تتطلبها وتطلبها الحركات النفسيّة المتموّجة بحسب الحال ، و العضويّة الظاهرة الغرضيّة ، أوالتي تحركها عوامل باطنة نحسّها دون أن نحدد مكانها أونعرف ماهية مكامنها على وجه الدقة والتحديد ، وإن قالوا بأن لها مراكز إرادية تكمن في المخ .

وفي كلتا الحالتين يتحقق جزء من الإرادة المنفعلة بالمؤثرات ، والفاعلة في الحياة ، وعندها تبدأ دورة جديدة من طلب المعرفة ، أو حيويّة جديدة تستقر بها ثائرة النفس التي تفقد توازنها في لحظة الانفعال ، فتكبح بها جماع الثورة النفسيّة الجسدية « النفسجدية » الجنسيّة ، التي تتحرك بآليّة عجيبة ماتزال أكثر أسرارها مجهولة في ضمير الغيب .

والإنسان هذا المخلوق العجيب المستخلف في الأرض ، يقف بين أمرين : إما أن يحقّق إنسانيته السويّة في إيجابيّة الفعل الجنسي ، العاقل الواعي ، المدرك لغاية وجوده وعلاقته بالكون والحياة ، وبني جنسه ، فينظم العلائق القائمة بين هذه العناصر ، ليحقق التناسق والتكامل

والسيادة على إنسانيته الذاتيّة المتعلقة فيه ، والمرتبطه بتصرفاته أصلاً ، وبين أن ينجرف وراء حيوانيّة رعناء في شهوانيّتها ، عاصفة في ممارستها وغاياتها ووظائفها ووسائلها ، وفي هذايكون قد أفرغ إنسانيته في مسلك حيواني بهيمي صرف ، ولم يعد يحسب في عداد البشر .

إن الإنسان مخلوق يجتمع فيه : حب التمتع والشعور باللذة ، وعشق تحقيقها وممارستها بين الحين والآخر ، وقد قال تعالى : ﴿ زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[1] .

وهنا يمكن القول « إنه خلق الله الإنسان ووضع فيه الشعور باللذّة ، والتمتّع بالطّيبات من بدائع خلقه وخاصة النساء ، وهنا يخبر الله تعالى عما زيّن للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذّ من النساء والبنين ، فيبدأ بالنساء لأن الفتنة بهنّ أشدّ كما في الصحيح : « أنه ﷺ قال : « ماتركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء »[2] فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب ، مرغوب فيه ، مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والإكثار منه ، وأنّ « خير هذه الأمة من أكثرها نساء »[3] .

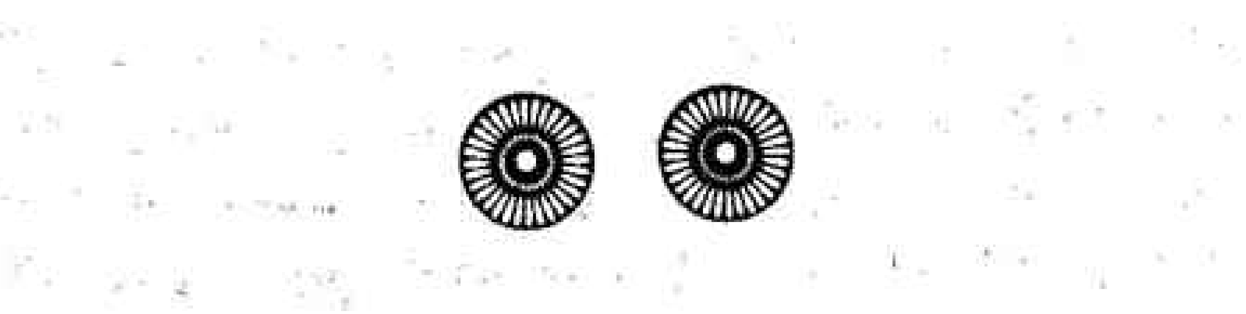
والتزيين إذن سابق بالفطرة وطبيعة الإنسان المخلوق وتكوينه الجسدي والنفسي والفيزيولوجي لا بالاكتساب الحضاري ، أو بالتنافي المعرفي ،

(1) سورة آل عمران : الآية «١٤»

(2) الحديث رواه البخاري بباب النكاح (١٨) ٥/١٩٥٩ ورقمه فيه /٤٨٠٨/ بتحقيق الدكتور البغا ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة «الرقاق» بابه : أكثر أهل الجنة الفقراء /رقم ٢٧٤٠/

(3) صحيح البخاري بشرح الكرماني - كتاب النكاح ٥٩/١٩ رقمه /٤٧٤٩/ طبعه إحياء الكتاب العربي ط ٢ سنة ١٤٠١ هجرية ١٩٨١ م

والتزين بالفطرة والطبيعة والتكوين يمكن أن يكون عمليّة إيجابيّة للوصول إلى العفاف، وعدم إيصال الأذى للغير . فيصبح التّمتّع بجمال المرأة وأخلاقها وعفافها وجسدها، والتمتّع بالرجل من قبل المرأة بطباعه وعفافه وأخلاقه وعلمه، وما تقوم عليه العلاقة بينهما في جملتها، كل ذلك منظّم أدقّ تنظيم، ومتقن غاية الإتقان، بما يتناسب وطبيعة الإنسان وفطرته وكمال خلقه، ومتطلبات ملكاته وحواسه وانفعالاته وشهوته وغريزته، ولكنها موجّهة أحسن توجيه إلى أطهر ممارسة .



المرأة انسانة

«في الاسلام»

وحد الإسلام النظرة الإنسانية للرجل والمرأة ، وحدّد مكانتها في مجتمع بمالا يدع مجالاً للشك أو التساؤل ، فتماثل الرجل والمرأة وتساويا في الحياة وشؤونها منذ الخلق الأول ، حين وجد « آدم وحواء » عليهما السلام ، وبيّن القرآن ، ورسول الهدى محمد ﷺ بما جاء به أوضح هذه النظرة والمكانة ، ليصفع الباطل ، ولينهي الارتياب . وليضع كل في مكانه ومكانته التي خلق من أجلها ، فيقوم كل بماأمر به .

ففي السكن الأوّل تساويا : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[1]

وفي الأكل الأول أيضا : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾

وفي النهي الأول كذلك : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾

وفي المصير الذي سيعيشانه : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾

إذاً هو تساوٍ في السكن وشؤون الحياة ، والالتزام بنظام إرادة الله لهما ، وفي المصير المقدر لهما ، وحين فعل الشيطان -لعنه الله- فعلته ، وأزلّهما ﴿ فأزلّهما الشيطان عنها ﴾ كان الإخراج لهما أيضا :

﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾

وفي العداوة لإبليس لم تكن لآدم دون حواء ، أو حواء بغير آدم ، بل كانت المخاطبة صريحة لهما معاً على وجه التساوي : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم

(١) الآيات من سورة البقرة « ٣٦ »

لبعض عدو﴾ وفي المهمة المشتركة لصنع الحياة على أرض الله تساويا أيضا وتبقى معهما مهمة العداء للشيطان : ﴿ ولكم في الأض مستقرّ ومتاع إلى حين ﴾[1].

ولما حلّت العقوبة بعد المخالفة حين ﴿ أزلهما الشيطان ﴾ في ﴿ فدلّاهما بغرور فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾[2] . وقع اللّوم واستحقّا العقوبة ، ناداهما الله سبحانه وتعالى ، ولم يناد واحداً منهما وإنما على التماثل ﴿ وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين ﴾[3] .

وحين تابا ، كانت التوبة لهما أيضاً ﴿ قالا ربنا إنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ .

بل إن القرآن الكريم في بعض آياته قد نسب الذنب إلى آدم وحده فقال : ﴿ وعصى آدمُ رَبّهُ فغوى ﴾[4] .

وقد وضع الله سبحانه وتعالى في المرأة كامل الأهليّة لتحمّل المسؤولية العباديّة ومقتضياتها ، وفي شؤون الإعمار الاجتماعي وتطويره ، وإصلاحه وتنقيته من ضلال الأهواء ، وعبث الفساد والمفسدين فيه ، فكان الوعد الحق للرجل والمرأة في الحياة الطيبة وخير الجزاء والثواب ، وكانت المرأة من أجل القيام بنصيبها المفروض عليها مساوية للرجل متساوية معه في العمل ، والجزاء والثواب ، كما تتساوى معه في العقاب .

﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أوأنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ، ولنجزينّهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾[5] .

(١) الآية من سورة البقرة الآية «٣٦» .

(٢) الآية من سورة الأعراف الآية «٢٣» .

(٣) الآية ذاتها .

(٤) سورة طه : الآية «١٢١» .

(٥) الآية من سورة النحل «٩٧» .

ذلك لإن الإيمان هو العاصم للنفس البشرية من الشطط والهوى ، وهو المنبع للتآخي الإسلامي ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[1] وعنه تصدر الأحكام وتضبط العلاقات في أرقى درجاتها ، حتى تتساوى النفوس في محرابه ، فلا طغيان للرجل على المرأة ، لأنه يقوم على ابتغاء وجه الله ورضوانه في كل فعل وسكنة وحركة وأثر ، ولا منّة للمرأة على الرجل ، فلا غدر ولا خيانة في نفس أو بيت أو سكن أو مال ، ولهذا كانت الاستجابة للإيمان الذي يحمي هذا وتلك ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أوأنثى بعضكم من بعض ﴾[2] .

« أي قال لهم مخبراً أنه لايضيع عمل عامل منكم لديه بل يوفّ كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء »[3] .

ويتجلّ نور الحقيقة في بيان شامل كامل ، واف كاف ، وتنجلي ظلمات الشك ، وتنبثق باهرات اليقين تضيء كوى النفوس ، لتشرق بآيات الله في جليل المعاني ، وشرف الدلالة في مبدأ التساوي ، القائم على نظرة شموليّة فيها العمق والوضوح ، وفيها مايجلو الغموض ، وينفض غبار التساؤل عن هذه المسألة ، ويبرز التساوي جليّاً في قوله تعالى : ﴿ إنّ المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعدّ لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[4] ، وقد نزلت هذه الآية حين وقع التساؤل في نفوس النساء ، وحين كان يذكر الرجال في القرآن ، فعن عبد الرحمن بن شيبة قال :

---

(1) الآية « ١٠ » من سورة الحجرات .

(2) الآية « ١٩٥ » من سورة آل عمران .

(3) تفسير ابن كثير ٤٤١/١

(4) الآية « ٣٥ » من سورة الأحزاب .

سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يرعني ذات يوم إلاّ ونداؤه على المنبر ، قالت وأنا أسرّح شعري فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس إن الله تعالى يقول : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ﴾ إلى آخر الآية[1] .

وفي حديث آخر : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبيّ ﷺ : ماله يذكر المؤمنين ، ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ الآية .

تلك مميزات أعطاها الله تعالى للمرأة المسلمة عرفاناً لها بحقها في العمل ، وفي العبادة كما أرادها الله سبحانه ، وكما بيّن رسوله محمد ﷺ ، وصوناً لها من الاستعباد والأذى النفسي والجسدي والعقلي ، فوضعت في المكان اللائق بها من المجتمع الإسلامي ، الذي أقعدها في الصدارة بجانب الرجل حتى لاتظن أنها دونه منزلة أو مكانة أو عبادة أو مسؤوليّة .

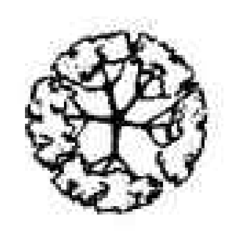
وإذاً هي المرأة الأم والأخت والمربيّة والزوجة التي أكرمها الله في قوله تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾[2] وتلك هي التي شملها الرسول ﷺ بقوله : « إنما النّساء شقائق الرجال »[3] وهذه مسألة مقضيّ فيها بكتاب الله وسنّة نبيّه محمد ﷺ ، وفيها النّص القاطع : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[4] فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول ، كما قال تبارك وتعالى :

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣ ومابعدها .
(٢) سورة الإسراء : الآية « ٧٠ »
(٣) الحديث رواية الجامع الصغير للسيوطي ٣٤٤/١ ، وصحيح البخاري .
(٤) سورة الأحزاب : الآية « ٣٦ »

﴿ فلا وربّك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[1]

وفي الحديث : «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[2] .

ولهذا شدّد الله سبحانه وتعالى في خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا ﴾[3] ، والله سبحانه ورسوله ﷺ قضى أمرهما بالتساوي في كلّ هذه الأمور ، ولم يدع مجالاً للتفاوت كما عرفته الأمم السابقه ، فأقام لها المكانة « أمّا » لها الحق في الطاعة لأنّ « الجنة تحت أقدام الأمهات »[4] ، وأختاً وبنتاً لها حق الرعاية والانفاق عليها ، وزوجة لها حق التكريم والاحترام ، وهذا مالم تحظ به في أية أمة من الأمم سوى الأمة الإسلاميّة ، ورسالة محمد ﷺ .



(١) سورة النساء : الآية « ٦٥ »
(٢) الحديث : رواه مسلم في صحيحه ٦٧/١ ورقمه ٦٩ في كتاب الإيمان « ٤٤ »
(٣) سورة الأحزاب : الآية « ٣٦ »
(٤) الحديث : رواية الجامع الصغير للسيوطي عن أنس رضي الله عنه ٤٩٢/١ رقمه ٣٦٤٢

بين يديه ﷺ

إن ما جاء به الرسول ﷺ في شأن الحياة الزوجيّة بين الرجل والمرأة خاصة ، وشؤون الحياة الأخرى بشكل عام ، لم ينشأ كنتيجة لقرار تشريعي وضعه مصلح اجتماعي ، ولا هو ناتج عن رؤية باحث متخصص أولى نظرة واعية حكيمة عارفة لأحوال هذا المجتمع أو ذاك . وإنما هي أوامر ونواه ودلائل تعصم المخلوق عن الخطأ ، جاءت متناسبة مع طبيعة المخلوق وتكوينه النفسي والعقلي ، وضعها الخالق الأعلم بطبيعة خلقه ومايدور في أنفسهم ، وبما اشتملت عليه طبائعهم ونوازعهم ، وما تتحدث به جوارحهم ، وما ستؤول إليه أحوالهم ، وما ستقودهم إليه رغباتهم وغرائزهم .

جاءت تعاليم النبي ﷺ شاملة كاملة ، هادية بينّة ، علميّة راقية ، لكي تضع السعادة بين أيدي الخلق وفي متناولها ، إن هي أدركت كيف تسلك إليها سبيل الرشاد ، وإن هي أعملت العقول بإشراق الإيمان ، واستقامت في عملها وصلاح حالها ، وبحثت بتدبّر فيما يضعه الهدي النبوي الشريف أمامها ، مما ينشىء السعادة ويفتح للحياة القلوب والنفوس .

والمصلح الاجتماعي أو الباحث الاجتماعي ، بما آتاه الله من العلم والمعرفة والدلائل العقلية ، قد يتمكن بعد البحث الدؤوب ، والممارسة العملية والتجربة المستمرّة ، أن يعرف جانباً من الخلل الاجتماعي سواء في العلاقات أو في المسلكيات الأخرى . ولكنه لن يستطيع التعرف إلى كنه الطبائع ، ولا إلى حقائق التكوين ، ولا إلى الاستجابة الغريزيّة أو الفطريّة لمغريات الحياة ولذائذها ، أو لمقوّماتها الأخلاقيّة .

إن آلية الاستجابة لهذه أو تلك مجهولة بالنسبة للمخلوق ، معلومة عند الخالق . لأنه جلّ وعلا خالق الخلق وحده يعلم ماوضع من فطرة ونشأة وعقلانيّة تدرك المعنى الأسمى فتتبعه ، أو تضعف أمام الأهواء فتنساق معها تبعاً للإرادة وصاحبها ، وإلى قدرة الإرادة على الكبح الأخلاقي والعقلي الذي « ينهى النفس عن الهوى » أو يترك لها عنان الانسياق وراء الدنايا ورذائل الأعمال .

وإذاً فالفرد هنا : إما أن يحكم العقل والبصيرة الهادية إلى الإيمان ، فيحفظ لنفسه ومجتمعه القيم والأخلاق والطهارة والسعادة ، وإما أن ينحرف ، فيكون قد أسهم في الخطأ ، وأوقع نفسه في مهاوي العبث والضلال والضياع .

فليست هي مسألة تشريعات إذن ، ولا هي قرارات وضعيّة يمكن الحوار فيها ، أو تقييمها سلباً أو إيجاباً ، ولا هي مسألة قرار أعلى ، وإنما هي الفطرة { فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾(١) .

إنما هي الدين الناظم لكل شؤون الحياة كما ارتضاها الخالق لخلقه ، سعادةً ورخاءً ونعيماً مقيماً ، وهي النور والهدى وعلى المرء أن يجيب على سؤال الخالق تعالى : ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾(٢) ؟

لقد بلّغ محمد ﷺ الرسالة وأدى الأمانة ، وأنار الطريق . وليت العقلاء يدركون : أنه ما من قوة بشريّة على وجه الأرض ، مهما بلغت من قوة الصعود إلى أجرام السماء ، أو امتدادها حتى تشمل سماء الكرة الأرضية ، أوهبوطها إلى مدارك أعماق الأرض ، أن تنتزع من الانسان فطرته وإيمانه ، ولن تستطيع منحه لحظة طمأنينة ، كما هي لحظة النقاء المطمئن حين الوقوف

---

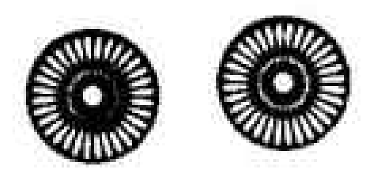
(١) سورة الروم : الآية « ٣٠ »

(٢) سورة الملك : الآية « ٢٢ »

في محراب الإيمان ، أو خلوة في مناجاة الخالق ، أو ساعة احرام في الصلاة ، أو تسبيحة في ليل أو دعاء وقرآن في سحر .

والحياة الزوجيّة التي بيّنها الرسول ﷺ ، وأقامها على طهارة النفس والبدن ، والتربية والطاعة لله ورسوله ، وتقوى الله في كل فعل ، هي الركيزة التى بنى عليها المسلمون حياتهم وسعادتهم .

إنه لمن الخطأ الفادح أن يظن الجهلة والمغرضون أنه : قد وقع فاصل زمني بيننا وبين السعادةالتي بلّغها النبي ﷺ ، ولكن الحقيقة التي أرى هى : أننا نستطيع أن نبلغ مابلغه أصحاب رسول الله ﷺ وهو بينهم ، لأن الكتاب الذي اتّبعوه ، والسنّة التي تركها لنا صلوات الله وسلامه عليه مازالت كما هي بيننا ، وفي متناول أيدينا ، ترشدنا كما أرشدتهم ، وتهدينا ماهدتهم ، وهي ذاتها التي سلكها أصحابه رضوان الله عليهم طريقاً ومسلكاً ، وهي ذاتها التي رفعتهم إلى أعلى الدرجات فأصبحوا سادة العالم حين التزموا القيم والأخلاق ، فحققوا الفتح والسيادة والحريّة والعدل .



بداية الحمل ومراحله في القرآن الكريم

إنه لمن الخطأ الذي نرتكبه في وقتنا الحالي أن نطالب بحياة زوجيّة مستقرّة ، من زوجين بلغا من العمر عشرين عاماً أو أكثر ، دون أن ننظر إلى التربية التي عاشاها وهما بعد في النشأة الأولى، بمعنى أننا يجب أن ننظر في الأحوال التربويّة التي عاشاها وهما في الصغر . ذلك لأن كل مرحلة من مراحل النمو تقتضي تربية خاصة بها تناسب طبيعتها وعمرها .

ولو تأمّلنا في هذه المراحل ، لاستوقفتنا عظمة الخالق وقدرته ، ولأدهشتنا معجزة النمو ، تلك التي تتطلب فناً في التربية ، ومعاملة من نوع يناسبها ، طبقاً لحجمها ومرحلة حياتها .

وإذا كانت العمليّة التربوية الأخلاقيّة ، من تهذيب ومداراة ورعاية ونظافة وعلم وغيرها هي ماأشار إليه علم الطب الحديث ، فإنها كلها وفي مجملها جاءت وأثبتت في كتاب الله عز وجلّ الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ ، فلنتابع هذه المراحل .

قال تعالى : ﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لاإله إلاّ هو العزيز الحكيم﴾[1]

أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر أو أنثى ، وحسن أو قبيح ، وشقي أو سعيد له الأمر في ذلك سبحانه .

---

(١) سورة ال عمران : الآية «٦»

وقال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزّل الغيث ، ويعلم مافي الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وماتدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[1]

وقال : ﴿ فلينظر الإنسان ممّ خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ﴾[2]

يعني : المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة فيتولد منهما الولد بإذن الله عزّ وجل ، ولهذا قال : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها.[3]

وقال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم فنحن القادرون ﴾[4] اي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجلّ .

وقال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا . إنا خلقناه من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا ﴾[5] أي « خلاط » والمشج والمشيج : الشيء المختلط بعضه في بعض ، قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ من نطفه أمشاج ﴾ يعني : ماء الرجل ، وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا . ثم ينتقل بعده من طور إلى طور وحال ولون إلى لون . وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة[6] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة

(١) سورة لقمان : الآية « ٣٤ »
(٢) سورة الطارق : الآيات ٥ - ٦ - ٧ - ٨
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٩٨
(٤) الآية من سورة المرسلات « ٢٠ - ٢٣ »
(٥) سورة الإنسان : الآيتان « ١ - ٢ »
(٦) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٣

عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1]

وهنا تظهر مراحل التربية الربّانيّة التي تعنى بهذا المخلوق أفضل عناية ، بل أعجز عناية ورعاية :

١ ـ فبداية كل الخلق كانت من سلالة من طين . وهذه اختصت بها قدرة الخالق عز وجل . فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيّب وبين ذلك »[2]

٢ ـ ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ وهو الرحم الذي خلق لهذا الغرض وهيّئ له .

٣ ـ ﴿ ثم خلقنا النّطفة علقة ﴾ أي صيّرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهي عظام صدرها مابين الترقوة إلى السّرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة ، قال عكرمة وهي دم[3] .

٤ ـ ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لاشكل فيها ولا تخطيط .

٥ ـ ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ يعني شكّلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها .

٦ ـ ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا منه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ، وتلك مراحل أشارإليها رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق ، إن أحدكم ليجمع خلقه

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢، ١٣ ـ ١٤ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٠

في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه ، أجله ، وعمله ، وهل هو شقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها »[١]

﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وأحسن المربين ، خالق الخلق وفاطر السماوات والأرض .

وقال تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربّكم له الملك لاإله إلا هو فأنّى تصرفون﴾. [٢]

وهذه الآية الكريمة تؤكد مراحل التربية الخلقية في ﴿ ظلمات ثلاث ﴾ تلك التي شهدت تطور الإنسان وتربيته في نشأته الأولى « يعني ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد ، وظلمة البطن » . كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو مالك وقتادة والسدّي وابن زيد[٣]. وقد ورد في الحديث القدسي: «ياابن آدم جعلت لك قراراً في بطن أمك ، وغشيت وجهك بغشاء لألاّ تنفر من الرحم ، وجعلت وجهك إلى ظهر أمك لألاّ تؤذيك رائحة الطعام . وجعلت لك متكأً عن يمينك ومتكأً عن شمالك . فأما المتكأ الذي عن يمينك فالكبد ، وأما الذي عن شمالك فالطحال ، وعلّمتك القيام والقعود في بطن أمك . فهل يقدر على ذلك غيري ؟ فلما أن تمت مدّتك ، أوحيت إلى الملك الموكل

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٤١/٣ ـ الحديث .

(٢) سورة الزمر : الأيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦/٤

بالأرحام أن يخرجك ، فأخرجك على ريشة من جناحه ، لالك سن تقطع ولا يد تبطش ولا قدم تسعى ، فأنبعث لك عرقين رقيقين في صدر أمك يجريان لبنا خالصاً حاراً في الشتاء بارداً في الصيف ، وألقيت محبتك في قلب أبويك فلا يشبعان حتى تشبع ، ولا يرقدان حتى ترقد .

فلما قوي ظهرك ، وأشتد أزرك ، بادرتني بالمعاصي في خلواتك ولم تستح مني ، ومع هذا إن دعوتني أجبتك ، وإن سألتني أعطيتك ، وإن تبت إلي قبلتك »[1] .

وأول مايجب معرفته هنا في تربية الجنين عند الحامل ، هو الفرق بين الحمل الناتج عن النكاح والحمل الناتج عن السفاح .

فحمل النكاح ، لاتتعرض الأم فيه للاضطرابات النفسيّة ، وحالات الخوف وإنما قد تكون في حالة فرح وسرور ، ولحظات من الترقب للمولود ، فتراعي وضعها الصحي وتبعد عن الانفعالات ، فتكون اكثر اطمئناناًوسعادة ، تضاف إلى سعادة الزوجين في الرزق الحلال الطيب الذي يزيد الروابط الأسريّة رحمة ومحبة وبهجة ، فتكون الأسرة مستعدّة لاستقبال مولودها الذي طال انتظاره .

« فإذا كانت العوامل الوراثية ، والعوامل البيئية سليمة ، أنتج ذلك طفلاً صحيحاً سوياً . وإذا توافر الغذاء الجيد للأم ، ولم تتعرض لأمراض معدية ، ولم تتعرض للإشعاع ، ولم تتناول من العقاقير ما يؤثر عليها وعلى الجنين ، وإذا كانت حالتها النفسيّة مستقرّة ، وإذا كان عمرها ملائماً ، واتجاهاتها نحو الحمل سليمة ، ولا توجد اضطرابات في الحمل والوضع ، إذا توافر هذا فإنه يؤدّي إلى ولادة طفل صحيح سوي[2] .

والأهم إذا هو طمأنينة الأم وراحتها النفسيّة ، وما يوجد هذا إلاّ

(١) حديث قدسي .

(٢) راجع علم نفس النمو للدكتور حامد عبد السلام زهران ص ٨٦ ومابعدها .

بذكر الله لأنه ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . ومن ناحية أخرى فإن المشروبات الكحولية إذا ما تعاطتها الأم سواء أأدمنت أم لم تدمن عليها ، تؤثر على الجنين ، لأنَّ هذه المشروبات « وبعض العقاقير الطبيّة ، تحدث تغيراً كيميائياً في الدم ، سرعة نمو الجنين للتأخر لتأثيرها في غذائه وتنفسه .

وتدل بعض البحوث على أن إدمان المخدرات وإفراط الأم الحامل في التدخين يكون له أثر سيء على نمو الجنين » وهذا مخالف للتربية في الإسلام التي تقوم على تحريم المشروبات الكحولية وغيرها ، ليس بوصفها مسكراً وإنما لأنها تضر بالصحة وسلامة الجسم والعقل مما قد تسبب ضرراً مباشراً للجنين .

وأما حمل السفاح : فإن الأم تبقى في حالة اضطراب دائم ، وتقضي زمناً بين القلق والخوف من المستقبل والمجتمع إلى جانب شعورها بالإثم والندم ، وضياع المستقبل أو شعورها بالتهديد الدائم ، و « قد يؤدي هذا إلى توقع الحامل أن يأتي وليدها مشوّهاً كنوع من العقاب »[1]

فتربية الجنين إذاً أشبه ماتكون ببذرة من نوع طيب في أرض طيبة ، تحتاج إلى رعاية للغرسة ، وإحاطتها بالرعاية والعناية اليوميّة اللازمة ، كما تحتاج الأرض الطيبة إلى عمل وعطاء وتهيئة مستمرة ، ليخرج النبات طيباً بإذن الله . وهو في الإسلام مصان متقن تقوم نشأته على الإعداد النفسي والبدني والعقلي لاستقبال الحياة في كلّ مسؤولياتها ، وهو إعداد من نوع عالٍ . فكما أن البذرة والغرسة أو الشجرة تحتاج إلى علم ومعرفة بشؤونها في الزراعة والتقليم والسقاية وغيرها كذلك الجنين يحتاج إلى علم ومعرفة بشؤونه في التكامل والنمو والتعلّم والتوجيه وحسن التربية . وبهذا نبدأ في تنشئة جيل تقي طاهر عفيف مؤمن .

إن هذا القرآن ﴿ لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ﴾[2] إذاً ﴿ أفلا

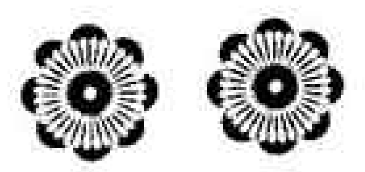
---

(١) علم نفس النمو د. حامد عبد السلام زهران ٨٦ ومابعدها

(٢) سورة الكهف : الآية « ٤٩ »

يتدبرون القران أم على قلوب أقفالها ﴾[1] وهل نجد في الآباء والأمهات آذاناً صاغية لقوله تعالى ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾[2]

وفي هذه التربية وشؤونها وأجرها وثوابها وأصولها يقول ﷺ : « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرّائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن » فقال رجل : وثنتان يا رسول الله ؟ قال : « وثنتان » . فقال رجل : وواحدة ؟ فقال « وواحدة » . وهذا يعني الصبر على التربية من أول الخلق للإنسان أي جنيناً وطفلاً وشاباً وكهلاً . . . . فصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .



---

(١) سورة محمد ﷺ : الآية « ٢٤ »

(٢) سورة الشورى : الآية « ٤٢ »

صحة الحامل وغذاؤها

قال تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾(١)

إذاً ﴿ البنون ﴾ زينة وتجمل وقرارة نفس وعين ، تقضي شكر الله الواهب المنعم على عباده بمنحهم هذه الزينة ، تلك الثمرة التي يطول ارتقابها ، فيبدأ الحديث عنها في فترة تعتبر أفضل مرحلة من مراحل الحياة للشباب ، ألا وهي مرحلة الخطوبة ، مرحلة الصفاء والحب والتوقد الوجداني . حيث يضع الخطيبان تصوراتهما عن أولاد المستقبل ، عدد الذكور والإناث ، إلى جانب التسميات والكنى التي يضعانها في لحظات الطرب النفسي ، وتدفق الحب الذي يظهر زفرات الشوق على الرجل ، واحمرار الوجنتين وإخفاض الرأس من المرأة ، في ساعة النشوة والحلم بالمستقبل حين يلفّها الخجل والحلم وتكبت مشاعرها التي تكاد تصدق كل ماتسمع من الرجل الذي يفرد جناح الأحلام ويحلّق بعيداً وراء الأمل المرتقب .

ويقول تعالى : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾(٢) وهذا الإمداد بالأموال التي تجلبها الصحة والحركة والعمل المستمر ، والبنين الخلفاء الذين يحملون اسم أسرتهم وطباعها وعواملها الأخرى ، تستوجب الحمد لله الكريم على منته ورحمته ، وتفضله بأن جعل الأب مخصباً والأم ولوداً ، فلم يحل بهما العقم الذي حطم أنفس الكثير من الناس وجعلهم في حسرة على مولود واحد يملأ عليهم فراغ الحياة ومسيرة العمر .

ولكن المؤمنين الصابرين الحامدين الشاكرين ، الذين شملتهم

(١) سورة الكهف : الاية « ٤٦ »

(٢) سورة الاسراء : الآية « ٦ »

رحمة الله ووصفهم تعالى بقوله : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾[1] هؤلاء يقولونها بحقّها إيماناً، وبحقّها احتساباً ورضواناً ، بحقها حلالاً لباساً وطعاماً ، فلم يسلكوا سبيل الحرام في مأكل أو مشرب أو ملبس ، فحرموا ماحرّم الله ، وأحلوا ماأحل الله لهم من الطيبات من الرزق .

فاللقمة الحلال تنبت الحلال الذي به تقرّ العين وتطمئن النفس ويرتاح القلب ، وهي التي تمدّ الإنسان بطاقة من العزيمة والإرادة ، تدفع إلى العمل والاكتساب إلى جانب القناعة والرضى بالمقسوم بعد الجهد والكد والمداومة على العمل . حيث يبارك الله في كل حبة عرق وكل خطوة . وأما اللقمة الحرام ، فتترك الإنسان في صراع دائم مع النفس ، ويحيا المرء فيها بين الندم ولوم الوجدان ، واللقمة الحرام كجمرة نار يسقيها ويطعمها الإنسان لولده ، بحيث تتركه في قلق دائم وحيرة لاتنتهي .

واللقمة هي دم الجنين ولحمه وعظمه ، فمن أراد أن يؤسس بنيانه على التقوى ، فعليه بالحلال الطيب ، وم أراد أن يؤسس بنيانك على « شفا حفرة من النار » فلينظر مايؤسس ، يقول تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾[2] يقول : « أدبوهم وعلموهم » ، وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » يقول : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » قال : اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله ، وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به ، وتساعدهم عليه . فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها »[3]

(١) سورة الفرقان : الآية « ٧٤ »

(٢) سورة التحريم : الآية « ٦ »

(٣) تفسير ابن كثير ٣٩١/٤

وقال رسول الله ﷺ في هذه الآية : « مروا الصبيّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها »[1] وفي حديث آخر « واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » إذا فالحلال بيّن ، وعلى الأبوين أن لايجعلا تشكيل بنيته الخلوية في بداية تكوينه الذي أراده الله تعالى له ، من مادة حرام يحاسبهما عليها يوم القيامة ، لأن الجنين لم يختر طعامة وإنما تلقّاه عن أمه .

فإذا كانت اللقمة حلالاً طيباً ، والرزق خالصاً بارك المصدر ، فنثرها بالتقوى ، مجملاً بالايمان ، فيجب أن يكون « غذاء الأم الحامل كاملاً متنوعاً كافياً ، حرصاً على صحتها أثناء الحمل ، وضماناً لصحة الجنين . ونحن نعلم أن غذاء الجنين مصدره الأم وتدل البحوث على أن نقص غذاء الأم خاصة ، نقص البروتين وعدم اتزانه ونقص الفيتامينات خاصة فيتامين « ب » المركب يؤدي إلى تعب الأم الحامل ، وإلى نقص جسمي لدى الجنين كالكساح أو البلاجرا وفقر الدم أوالهزال .

ويؤدي إلى تأثر الجهاز العصبي والضعف العقلي والاضطرابات النفسيّة والتعرض للأمراض . وقد لوحظ أن نقص وزن الأم الشديد مع بداية الحمل وأثناء الحمل قد يؤثر تأثيراً سيئاً على نمو الجنين وقد يحدث « الإخداع » أي الولادة المبكرة . وقد يصل الحال إلى الإجهاض[2] .

وأما الحالة النفسيّة للأم الحامل[3] : فيقول العلم :

« يحتاج الجنين إلى أن تصل إليه مؤثرات جسمية وانفعالية صحيّة عن طريق الأم . وتؤثر الحالة النفسيّة للأم بطريق غير مباشر على نمو الجنين .

---

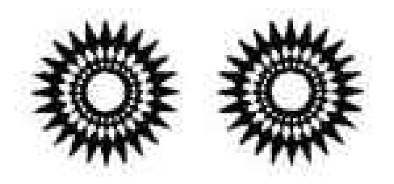
(١) الحديث رواه أبو داود في سننه ١٣٣/١ برقم /٤٩٤ و ٤٩٥/ .

(٢) علم نفس النمو : ص ٨٧

(٣) نفسه ص ٨٨

فالخوف والغضب والتوتر والقلق عند الأم ، يستثير الجهاز العصبي الذاتي ، وينعكس أثر ذلك في النواحي الفسيولوجيّة ، مما يؤدي إلى اضطراب افراز الغدد وتغير التركيب الكيميائي للدم مما يؤثر بدوره على نمو الجنين ، ويلاحظ أن شعور الأم الحامل بالخوف الشديد أو بالغضب والتوتر يصاحبه زيادة في حركة الجنين . ويلاحظ أيضاًأن القلق والتوتر الشديد قد يؤدي غلى مخاض أصعب وأطول » .

ولابد للوالدين من معرفة الدلائل الشرعيّة والفقهيّة ، والأمور الدينيّة عامة ، ومعرفة وجهة نظر العلم في الأمور ، حتى تكتمل المعرفة ويكون النهج واضحاً ، ويأتي الجنين بالبشرى والرحمة ورضوان الله تعالى .



الولادة ـ التسمية ـ الرضاعة

يقول تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[1]

وهنا يذكر الله تعالى منّته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لايعلمون شيئاً ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي يدركون به الأصوات ، والأبصار التي بها يحسّون المرئيات ، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارّها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً ، كلّما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشدّه ، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ، ليتمكن بها من عبادة ربّه تعالى ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوّة على طاعة مولاه » كما جاء في صحيح البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ماافترضت عليه ، ولايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن دعاني لأجيبنّه ولئن استعاذني لأعيذنّه ، وما تردّدت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »[2] ولكن لابدّ له منه .

وإذا كانت المسؤولية قائمة على الإنسان في سمعه وبصره وفؤاده ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه

---

(١) سورة النحل : الآية « ٧٨ » وتفسير ابن كثير ٢/٥٧٩

(٢) صحيح البخاري « حديث قدسي » ٥/٢٣٨٤ ـ ٢٣٨٥ رقم ٦١٣٧

مسؤولا ﴾ فإن الوليد لايحمل هذه المسؤوليّة وإنما هي مسؤوليّة الأب والأم ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

فالوليد لايقوى على تكييف حواسه ، ولذلك تقوم الأم والأب في بعض الأحيان على حاجاته ويكون اعتماده عليهما كاملاً ، ولهذا تقع مسؤوليّة تربية حواسه من سمع وبصر وعاطفة وطهارة وتوجيه على الأبوين والأم بشكل خاص . وإلى هذا أيضاً يدلنا الحديث الشريف : « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرّائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهنّ » ، فقال رجل : وثنتان يارسول الله ؟ قال : « وثنتان » فقال رجل : وواحدة ؟ فقال : « وواحدة »[1] . ولا يعني هنا الصبر على الواجب وأدائه فحسب ، وإنما يعني حسن التربية والرعاية .

يقول سيدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه : « الصبر صبران : صبر على ماتكره وصبر عمّا تحب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء »[2] ، إذاً فالطفل ناتج عن تربية الأبوين ، إما أن يقوّماه ويسلّماه من العبث والضياع ، وإما أن يجعلاه في أخطاء وأخطار السبل الأخرى المخالفة للشرع والفطرة والقانون .

فعن جابر رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة» حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً.

والتربية في الإسلام شاملة لكل نواحي الحياة بدءاً من إشعار الوليد بالعطف

---

(١) الحديث ـ البخاري ٥١٤/٢ رقم ١٣٥٢ .

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه ٤٥٦/١ ورقمه /١٢٩٣/ وفي ٤٦٤/١ برقم ١٣١٩ بلفظ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ،كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء » .

والحنان . فاللغة المهذّبة ، والهدوء ، والابتسامة ، والأدب معه ، وعدم إسماعه الألفاظ النابية ، وعدم الصخب والغضب وغيرها ، كلها تدخل في عملية التربية . لأن الحقوق كثيرة والواجبات كبيرة ، وتحتاج إلى دراية وعلم بها .

وقد حدّد رسول الله ﷺ نقطة البداية فقال : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم »[1] وفي هذا الحديث الشريف ما يتضمن معنى الاسم ، ومعنى الإحسان في التربية للحفاظ على الأسماء التي ندعى بها ، والآباء الذين ننسب إليهم . إلى جانب الملبس والمشرب والمسكن والتطهير الخلقي والبدني .

وقال ﷺ : « ومن حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه » ، وهنا يجب أن نعلم أن الاسم صفة نفسيّة تشكل ركن الشخصيّة الأوّل والهام . لأن الطفل حين يكبر ، يلتفت إلى اسمه ، فيضعه مع أسماء أترابه موضع المقارنه ، مما يجعل الطفل يتمنى أن يكون اسمه غير ماسمي به ، فيصبح اختيار الاسم هو ذاته اختيار هذا الركن الهام في الشخصيّة ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يغير الأسماء التي تعطي معنى نافراً ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يغير الاسم القبيح إلى الاسم الحسن « فعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية ، وقال « أنت جميلة »[2].

وحين جاءه قوم وقالوا : إنهم من بني غيّان . قال : « بَل بنو رشدان »[3] . وقد كان رسول الله ﷺ ينهى عن بعض الأسماء فقال ﷺ : « لا تسمينَّ غلامك يساراً ، ولا رباحاً ، ولا نجيحاً ، ولا أفلح ، فإنك

---

(١) الحديث رواية الجامع الصغير للسيوطي في طبعة دمشق ١/ ٣٤٧ ورقمه ٢٥٣٣

(٢) صحيح مسلم ٣/١٦٨٦ كتاب الآداب « ١٤ » رقمه ٢١٣٩

(٣) المزهر والخصائص .

تقول : أثَمَّ هو[1] ؟ فلا يكون . فيقول : لا »[2] . حتى لا يقال : هل هنا يسار في قال : لا فيصبح المعنى لا يسار هنا ولا فلاح ، وهنا تظهر شدة الحرص عنده ﷺ على الاسم ومعناه تكريماً للوليد ولأهله .

وعن ابن المسيّب عن أبيه : أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال : « ماسمك ؟» . قال : حَزنٌ ، قال : « أنت سهل »[3] ، وقال ﷺ « سموّا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي »[4] والمقصود هنا بالكنية أبا القاسم .

وماذا بعد ؟ وأريد هنا أن أسجل ملاحظة تبدو لي هامة جداً وهي : أن الوليد حين يولد يجب أن يخضع لفحص طبي شامل للتأكد من سلامة الأعضاء ، واستدراك مايمكن من التشوّهات التي قد تحدثها الآلات الحديثة أثناء التوليد في مشفى أو في عيادة طبيب ، وكذلك تخضع الأم إلى فحص ومراقبة للاطمئنان على سلامتها البدنيّة ، والصحيّة عامة . وهذا مايجري بالفعل ، ولكن ألا يجب مراقبة التطور النفسي والنمو النفسي عند الوليد ؟

ولعل أول مراحل تنمية الوليد نفسياً تبدأ من ضمّة إلى الصدر ، وابتسامة له ، وكلمة طيّبة ، إلى جانب تطهيره من كل أذيّة ماديّة أو معنويّة ، فقد كان رسول الله ﷺ أشدّ الناس حرصاً على مداعبة الوليد وملاطفته وتحنيكه وإطعامه .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وُلِدَ لي الليلة غلامٌ . فسميته باسم أبي ، ابراهيم » ثم دفعه إلى أمّ سيفٍ ، امرأة قينٍ حداد - يقال له : أبو سيف . فانطلق يأتيه واتّبعته ، فانتهينا إلى أبي سيفٍ وهو ينفخ وبكيره . وقد امتلاء البيت دخاناً . فأسرعت المشي بين يدي رسول الله ﷺ . فقلت : ياأبا سيفٍ أمسك . جاء رسول الله ﷺ

---

(١) بمعنى أموجود هو ؟

(٢) صحيح مسلم ٣/١٦٨٥ رقمه ٢١٣٧

(٣) صحيح البخاري ٥/٢٢٨٨ رقمه ٥٨٣٦

(٤) نفسه . رقمه ٥٨٣٤

فأمسك . فدعا النبي ﷺ بالصَّبِيّ ، فضمّه إليه . وقال ماشاء الله أن يقول[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها . قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ . فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ فقالوا : نعم . فقالوا : لكنّا ، والله . مانُقَبِّلُ . فقال رسول الله ﷺ : « وأملك إن كانا : الله نزع منكم الرحمة »[2]

إذا هي عمليّة غرس الرحمة في الطفل ، وهو أحوج مايكون إليها ، لأنها سقاية نفسه وبها يأنس وينام هادئاً هانئاً آمناً ، وإننا لنجد هذا حين يعبر عن انفعاله بلحظة الإنفصال عن أمه لحظة الولادة ، وحين يندفع الهواء إلى رئتيه وحباله الصوتيّة لأول مرةٍ ، فيصرخ صرخة المستوحش الخائف ، بعد أن كان في بطن أمه في الدفء والرعاية والرحمة الربّانيّة . ليشعرنا أنه بحاجة إلى الرحمة العمليّة التي تؤنسه وتعيد إليه الأمان ، وهو يستمد هذه الرحمة عن طريق الثدي حيناً واللمس حيناً آخر ، إلى جانب الأشياء الأخرى التي هو بحاجة إليها .

إن من افتَقَدَ الرحمة العمليّة في تربية الطفل ، لا يحسن دوره في الأبوة أو في الأمومة ، لأن كلمتي « الأبوة الأمومة » لهما وظيفة واحدة هي « الرحمة » وماثمرات الرحمة ؟ هي تلك التي تتصل برحمة الله سبحانه وتعالى تأخذ منها وتستجيب لها لتكون الحياة أسعد ماتكون .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن الأقرع بن حابس أبصر النبيّ ﷺ يقبّل الحسن . ـ رضي الله عنه ـ فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم . فقال رسول الله ﷺ : « إنه من لايَرحَم لا يُرحَم »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ١٨٠٧/٤ كتاب الفضائل رقمه ٢٣١٥

(٢) صحيح مسلم ١٨٠٨/٤ رقمه ٢٣١٧

(٣) نفسه برقم ٢٣١٨

الرضاعة والطفولة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ، لا تكلّف نفس إلا وسعها ، لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ماآتيتم بالمعروف ، واتقوا الله ، واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير ﴾[1]

كلّ شيء متقن مضبوط محكم « بلسان عربيّ مبين » لا إبهام فيه . فمدة الرضاعة محدّدة كافية يأخذ الطفل حظه وكفايته من حليب أمه ، فهذا « إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان ، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ، ولهذا قال : « لمن أراد أن يتمّ الرضاعة » وذهب أكثر الأئمّة إلى أنه لايحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين ، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم »[2] . ويؤكد هذا الرأي ما ورد في الخبر عن سعيد بن المسيّب رضي الله عنه قال : كل ماكان في الحولين وإن كانت قطرة واحدة فهو يحرم ، وماكان بعد الحولين فإنما هو طعام يأكله »[3] ويقول : « لا رضاعة إلاماكان في المهد وإلاماأنبت اللحم والدم » .

---

(١) سورة البقرة : الآية « ٢٢٣ » .

(٢) تفسير ابن كثير : ١/٢٨٣ .

(٣) صحيح البخاري ١/٤٦٥ ورقمه ١٣١٦ وفي ٣/١١٨٨ ورقمه ٣٠٨٢ .

ولما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ قال : « إن ابني مات في الثدي إن له مرضعاً في الجنة »[1] « هكذا أخرجه البخاري من حديث شعبة وإنما قال عليه الصلاة والسلام ذلك لأنَّ ابنه ابراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر . فقال : « إن له مرضعاً » يعني تكمل رضاعه[2] . ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «يحرم من الرضاعة مايحرم من الولادة »[3]. وزاد الإمام مالك « وماكان بعد الحولين فليس بشيء »[4] ، وقد رأينا قوله تعالى ﴿ وفصاله في عامين أن اشكر لي ﴾[5] ، وقال : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾[6] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لا رضاع إلا ما شدّ العظم وأنبت اللحم . فقال أبو موسى : لا تسألونا وهذا الخبر فيكم »[7] .

أهمية مرحلة الرضاعة :

إن مرحلة الرضاعة هي مرحلة التأسيس الأهم في حياة الوليد ، وهي مرحلة إعداد القوى والملكات والقدرات الجسميّة والنفسيّة والعقلية ، الكامنة ، لتصبح مستعدة لمباشرة دورها الميداني في مستقبل هذا الوليد . وأما من الناحية النفسيّة الخالصة ، فهي مرحلة « التشكل الأولى » إذ يكتسب الطفل فيها أموراً هامة هي : اللغة ، الأشياء ، الأسماء ، الأسرة ،

(١) وفي صحيح مسلم ١٨٠٨/٤ ورقمه ٢٣١٦ بلفظ: «إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة» .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الرضاع ١٠٦٨/٢ رقمه /١٤٤٤/ والموطأ ص ٥٠٠ ـ ٥٠١ وسنن أبي داوود ٢٢١/٣ رقمه ٢٠٥٥ .

(٣) الموطأ لابن مالك ـ الرضاع ٨، ص ٥٠٢ .

(٤) الموطأ لابن مالك نفسه ٥٠٠ وما بعدها .

(٥) سورة لقمان : الآية « ١٤ » .

(٦) سورة الأحقاف : الآية « ١٥ » .

(٧) سنن أبي داوود ٢٢٢/٢ ورقمه ٢٠٥٩ وقبلها وبعدها أمور هامة كثيرة .

الأقارب . . . وغيرها،وهذه بمجملها تسهم في شعوره بنفسه ، وتبدأ عمليّة التمييز عنده وإن كانت في أوليّاتها ، إلا أنها تشكل الأساس المتين لبناء الشخصيّة ، فهو يبدأ بالتعامل مع البيئة والمجتمع والمناخ ، وتأخذ دائرة المعرفة عنده بالاتساع المستمر .

وإذا كانت الفترة للإرضاع هي سنتين أو أكثر قليلاً أو أقل ، فإن هذه المرحلة ليست كلها رضاعة وإرضاع وإنما هي كلها تربية ومتابعة كاملة وهكذا يجب أن تكون ، لأنها بداية تكوين الشخصيّة في لغتها ودينها وأخلاقها وعلمها وصلة رحمها . وكما أنه لا يرضى أحد من الآباء ولا من الأمهات أن تنظر للسيارة التي تمتلكها الأسرة وفيها اعوجاج من هنا ، وضرب من هناك فتقوم عملية إصلاح التشويه فوراً ، فكذلك بل الأهم من ذلك أن تراعي النواحي التربويّة في التقويم والإعداد للطفل ، فهو الخلف للسلف ، وهو المستقبل وهو إحدى زينات الحياة الدنيا ، ويأتي بعد زينة النساء الزوجات الصالحات .

وإذا كان الطفل « يلد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فعلى الأبوين تقع المسؤوليّة وهما يتحملان الثواب إن أحسنا التربية ، والعقاب في الدنيا والآخرة إن أخلاّ بالواجب ونظام التربية . وفي مجتمعنا العربي والإسلامي نرى الكثيرات من الأمهات تفطمن أولادهن في وقت مبكر جداً وذلك لأسباب نعرف بعضها منها ، وسنذكر ماتعلم دون ترتيب لأن الأولويات عند النساء مختلفة ومتباينة :

١ ـ تظن أنها لن تحمل مرة ثانية طالما هي ترضع وليدها ، دون أن تنظر إلى حقه المفروض عليها من ربّها فتكون أنانيّة تنظر إلى نفسها وتهمل حق وليدها عليها .

٢ ـ عدد منهنّ تزعم أنّ الرضاعة تفقدها نصيباًكبيراً من الجمال الجسدي ، وخاصة ناحية الثديين وتقول : إن الثدي يصاب بالتهدّل والتراخي .

٣ - عدد آخر منهن تزعمن بأن الإرضاع هو السبب المباشر للنحول فتلجأ إلى الإرضاع الاصطناعي ، والحليب المجفف الذي لا يعرف على وجه الدقة ماتركيبه ومحتوياته ، علماً بأن الأطباء يرفضون إرضاع عدد ليس بالقليل من هذه الأنواع .

٤ـ وعدد منهن يفطمن أولادهن من أجل اللهو والترف ، والسهر خارج المنزل ، لإرضاء النزوات وإشباع الرغبات ، وقضاء الساعات في زيارات وأشياء أخرى . . .

فماذا يقول العلم ؟ يقول العلم :

« والرضاعة الطبيعيّة « لبن الأم » هي أسلم وأفيد طرق تغذية الرضيع . ونحن نعلم المزايا الجسمية للبن الأم ، إذ هو مكيّف تكييفاً خاصاً للرضيع كإنسان . فهو يحتوي على مكوّنات غذائية أكثر ملاءمة للطفل من لبن البقر . وهو يتناسب تماماً مع حاجات الطفل الفسيولوجية ومتطلباته الحيويّة الأساسيّة . وهو يكسب الطفل مناعة ضد كثير من أمراض الطفولة .

وتدل الإحصائيات على أن معدّل وفيات الأطفال الذين يتغذّون بلبن البقر ، أو الألبان الاصطناعيّة يزيد عن معدّل وفيات الأطفال الذين يتغذون بلبن الأم .

أما إذا رغبت الأم أو اضطرت إلى الاستعانة بالتغذية الصناعية ، فيجب مراعاة أن يكون ذلك مساعداً ولا تقتصر على التغذية الصناعيّة بقدر الإمكان .

ومن الحالات التي يمنع فيها لبن الأم عن الرضيع ، عدم وجود اللبن في الثدي ، وإصابة الأم بمرض يتضاعف خطره بالإرضاع ، أو يضر الرّضيع ، مثل : السّلّ الرئوي ، والنزلة الشعبيّة ، والحميّات وأمراض الكبد ، وفقر الدم ، والدفتريا والالتهاب السحائي ، والتهاب الكلى ، وأمراض القلب ، وحمى النّفاس ، والأمراض الجلديّة ، والاضطربات النفسيّة والعصبيّة .

ولا يفوتنا أن نذكر فوائد الرضاعة للأمهات أنفسهن : فالأم تشتق لذّة من إدراكها أنها هي مصدر غذاء وليدها . وهي تستفيد من ذلك جسمياً وفسيولوجياً .

إذ من المعروف أنّ الرضاعة تساعد على انقباض الرحم إلى حجمه الطبيعي . وهي إلى جانب ذلك توفر الجهد الذي تبذله الأم في إعداد التغذية الصناعيّة ، وهي تطمئن إلى الشروط الصحيّة التي تتوافر في الرضاعة من الثدي . وتستطيع الأم أيضاً عن طريق الإرضاع من الثدي ، أن تفهم وليدها الذي يلتصق بثديها وتتوثق صلته بها »[1] .

وانظري أيتها الأخت بنفسك واسألي عن حق الطفل عندك تعرفي قدرك عند الله ، وانظري أيتها المتنقلة بين الفواكه الطيّبة من تفاح ورمان وعنب وتين وغيرها ، أيتها الجاحدة نعم الله وأجيبي على سؤال بدهي جدّاً : أما كان الله يقدر أن يأتي للسيدة ﴿ مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾[2] بشجرة موز أو برتقال أو عنب أو فاكهة من الجنة لا يعرفها بشر ؟ جوابك : نعم . ولكن انظري إلى طعامها البسيط الطيب ، الكثيرالفائدة ، قال لها تعالى : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾[3] أي وخذي إليك بجذع النخلة قيل كانت يابسة . قال ابن عباس ، وقيل مثمرة . قال مجاهد : كانت عجوة . وقال الثوري عن أبي داود نفيع الأعمى : كانت صرفانة ، والظاهر أنها كانت شجرة ، ولكن لم تكن في إبان ثمرها ،

قال وهب بن منبّه : ولهذا امتنّ الله عليها بذلك ، بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال : ﴿ تساقط عليك رطباً جنيّاً * فكلي واشربي وقري عينا ﴾ أي طيبي نفساً ، ولهذا قال عمرو بن ميمون : مامن شيء خير

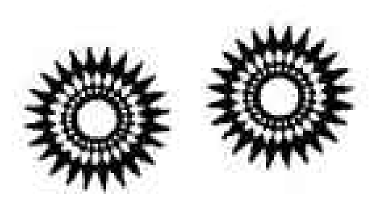
---

(١) علم نفس النمو لحامد عبد السلام زهران .

(٢) الآية «١٢» من سورة التحريم .

(٣) سورة مريم : الآية «٢٥»

للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية الكريمة ..... وعن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ « أنّ من الشجر شجُرةٍ لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة(١) فاستحييت ثم قالوا حدثنا ماهي يارسول الله قال : « هي النخلة ».فهل رضيت بهذا الطعام المتواضع ؟ وهل قنعتِ بما يقوله العلم في الرضاعة ؟ ثقي ياسيدتي بأن الله سبحانه لم يأمرنا بما لا يفيد ، ولم يمنعنا عن المفيد ، ونستدل على صحة قولنا بقوله تعالى : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾(٢) و﴿ وكلوا من طيبات مارزقناكم ﴾(٣) ولكن على أن لا ننسي أنفسنا في غمرة اللذائذ واندفاع الشهوات ، لأنه قال ﷺ مبيناً ومنذراً« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »(٤) - والطفل أول الرعيّة حقاً وأولها واجباً ، ثم الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيتة . . »



(١) الحديث في صحيح البخاري ٣٤/١ ورقمه ٦١ و ٦٢

(٢) سورة الأعراف : الآية «٣١»

(٣) سورة الأعراف : الآية «١٦٠»

(٤) صحيح البخاري ٣٠٤/١ ورقمه ٨٥٣

أساسيات التعامل مع الطفل :

١ ـ سيدتي : إذا أردت معرفة مكانتك عند طفلك ، فانظري مكانة طفلك عندك . فإنه كلما ازدادت العناية بالطفل ، وأعطي من الحب اللازم له ، كانت الرابطة بينه وبين الأبوين أقوى .

فلا تضربي طفلك لخطأ ارتكبه ، بل تعاملي معه بالنصح والإرشاد ، لأنّ العنف والشدّة قد تترك أثر بالغاً في نفسه قد لا يزول ، أو قد يكبر معه ، وقد دلنا رســول الله ﷺ إلى الكيفيّة التي يجب أن نعاملهم بها ، وحذّر من العنف ، وأعطى التحليل النفسي للطفل المعاقب .

فقد روي عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب ـ مرضعة الحسين رضي الله عنه ـ قالت : أخذ مني رسول الله ﷺ حسيناً أيام رضاعه فحمله . فأراق ماءً على ثوبه . فأخذته بعنف حتى بكى . فقال ﷺ : « مهلاً ياأم الفضل . إن هذه الإراقة الماء يطهرها . فأي شيء يزيل هذا الغبار عن قلب الحسين ؟ » . وهذا يدلنا على مقدار ماسيحمله الطفل من العنف ، وإذا كان لابد من العقوبة ، فلتكن أشبه بحلقات تدريب ، ضمن أسس علميّة تدريجيّة ، بحيث يعرف حجم الخطأ فيصلح من نفسه بمساعدة الكبار .

٢ ـ ولاتضربي الوجه :

لقد نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الوجه لعدة أمور ـ أو هكذا قرأت وسمعت ـ لأن الوجه لطيف يجمع المحاسن ، وأعضاؤه نفيسة لطيفة ، وأكثر الإدراك بها ـ لوجود الأعصاب التي تتحكم في جسم الإنسان ـ فقد

يبطلها ضرب الوجه ، وقد ينقصها ، وقد يشوه الوجه ، والشين فيه فاحش لأنه بارز ظاهر ، فقال ﷺ : « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه » وفي حديث آخر « فلا يلطمنّ الوجه »[1] ، وإن خطورة اللجوء إلى العقاب تكمن في أنه قد يؤدي إلى بقاء عقدة الخوف ، وقد تبقى معه بشكل دائم .

٣ ـ لا تشعريه بأنك خائفة ، من شيء ، ولا ينقص درجة الحب له ، ولا بخلاف يحصل بينك وبين أبيه .

٤ ـ عرّفيه بأخطائه ، وأثني عليه حين يصيب ، ولا تدلليه بإفراط ، وابتغي بين ذلك سبيلا .

٥ ـ لا تصرخي بوجهه ، واستقبليه بوجه طلق وليعرف أنك غاضبة حين يخطىء أو يسيء .

٦ ـ علميه النظافه ، وخدمة نفسه ، وأرشديه إلى طرق الطهارة ووسائلها .

٧ ـ لا تظهري أمامه مالا يحق له أن يرى منك ، ولا من والده أو إخوته أو أخواته « كالعورة مثلاً » . وسوي بين الأولاد في العطيّة لقوله ﷺ « اعدلوا بين أولادكم في العطية »[2] وقد روي من غير وجه عن النعمان بن بشير ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ، يستحبون التسوية بين الولد حتى قال بعضهم « يسوّي بين ولده حتى في القبلة » وقال بعضهم

---

(١) صحيح مسلم ٢٠١٦/٤ كتاب البر والصلة والآداب رقم الحديث ٢٦١٢ وما بعده . وانظر الحاشية رقم /٣/

(٢) صحيح البخاري باب الهبة للولد ٩١٣/٢ ورقمه ٢٤٤٥

يسوي بين ولده في النحل والعطيّة يعني « الذكر والأنثى سواء » وهو قول سفين الثوري »[1] .

٨ ـ قوّي الروابط بينه وبين إخوته وأخواته ، وذوي القربى والأرحام والأصدقاء .

٩ ـ إن الولد نسخة عن أبويه ، فلينظر الوالدان كيف يكونان القدوة حسنة لأولادهما ، والحذر الحذر من المشاهد المثيرة ، وغيرها من وسائل الثقافة التي لا تتقيّد بالحشمة والأدب والعفة . واحرصي على الصدق معه ، وتصدق له .

١٠ ـ ساعديه على تنمية مواهبه ومهاراته ، ولازميه ، وكذلك الأب ، ولعبا معه .

١١ ـ أسمعاه صوتكما بقراءة القرآن ، وأظهرا اهتمامكما بالمطالعة وملازمة الكتاب والسنة ، والعلم ، وإلقاء القصائد الشعرية وقراءتها وازرعا فيه محبتها .

١٢ ـ علماه الخجل من فعل مايعيب ، وتمثل الأدب والالتزام به ، والحياء والاحترام .

يقول المرحوم أحمد شوقي :

خذ بالكتاب وبالحديث وسيرة السلف الثقاة[2]
وارجع إلى سنن الخليقة واتبع نظم الحياة

---

(١) سنن الترمذي ـ باب ماجاء في النحل والتسوية بين الولد ٣/٦٤٩ ورقمه ١٣٦٧

(٢) ديوان شوقي « الشوقيات » .

ولكن كيف يكون الأدب ؟

١ - بحسن القدوة في الأدب والأخلاق والعلم والسلوك ، فالولد ينقل عن أبويه طباعهم ومسالكهم ، وعمليّة التعلّم لا تكون نظرياً وحسب ، ولكنها تكون عملية ونظريّة ، فإذا كان الأبوان جاهلين بشؤون التعليم والتربية ، فلا يمكن أن يكون الناتج صحيحاً كما هو المطلوب ، بل لابد لهما من الاطلاع والمشورة وإعانة المدرسة ، يقول ﷺ : « علموا أولادكم وأهليكم الخير ، وأدبوهم » فالخير فيما تعلمه القدوة وتسلكه ، والأدب فيما تتأدب به وتحمله مثلا في العمل والمعاملة .

ويقول ﷺ : « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حبّ نبيّكم ، وحب آل بيته ، وتلاوة القرآن ، فإن حملة القرآن في ظل عرش الله ، يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه »(١) .

فإذا كان الأمر هكذا ، فماذا يتعلّم طفل يرى أبويه في أحضان السهر والفحش والرقص والجنون ؟ وماذا سينقل منهما ويحفظ ؟ وهو الذي يكتسب من أبويه أسوأ مافيهما في أغلب الأحيان . وقد قال ﷺ : « ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن »(٢) وقال : « لأن يؤدّب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع »(٣) . وإذا لم ينته الأبوان ، ولم يأمرا بالمعروف ، ولم يسلكا درب النجاة في العلم والإيمان والسلوك القويم ، فقد أضاعا فرصة التربية الصحيحة ، وسيرافقهما الندم طوال الحياة ، وسيكون الناتج صعباً والمعاناة ثقيلة لأنها تنتج ضياعاً للأولاد .

فالأب المؤمن الصادق الكريم المتعلم ، المواظب على عمله وصلاته وأخلاقه وتربيته النفسيّة والخلقيّة ، والذي يأتي بلقمته رزقاً حلالاً طيباً ، من كسب حلال طيب ، سيكون أولاده مثله أو يتشبهون به . والأم التي ورثت

---

(١) الحديث رواية الجامع الصغير للسيوطي ٤٢/١ ورقمه ٣١١/ .
(٢) الحديث سنن الترمذي كتاب البر والصلة ٣٣٧/٤ ورقمه ١٩٥١ .
(٣) نفس السابق ورقمه ١٩٥٢ .

القناعة ، واكتفت بالمقسوم ، وكان الرضى والتقى والعفاف عباءتها التي تستر حياتها وحياءها ، وداومت على العبادة ، والعلم ، والأخلاق ، وحب الله ورسوله ، كانت لزوجها وأولادها نعم الرفيق والصاحب والمربي ، ونعم الحياة مع امرأة تحيا الصلاح وتحييه في نفسها وبيتها وولدها وقولها وفعلها .

وأما الأب الذي ترك الحياء ، ونفر بين الفحش والإباحيّة ، تشاركهُ زوجة لامبالية تتقلّب معه في الشهوات والملذات ، فيرتعان في الإثم والغواية والانحلال ، والسكر والفوضى ، فلن تكون حصيلتها إلا الانحراف والعبث وذلك أسوأ مايقلده الأولاد ، فيكون لهم مسلكاً ، ولحياتهم نهجاً ، يقول تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ، إلا المتّقين ﴾[1] .

ويقول تعالى ايضاً : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول : ياليتني تخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[2] .

٢ ـ تجنيب الولد رفيق السوء :

حذرنا الإسلام من قرناء السوء الكبار والصغار على السواء ، ذلك لأنَّ الفساد هو طبع مكتسب على حساب الفطرة ، وقرين السوء لا يدل على الخير ولا يهتدي إليه وفي هذا يقول تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ، إلا المتقين ﴾[3] وهذه العداوة إنما هي السير في طريق الفساد ، ولذلك فإن اختيار الرفيق والصديق أمر يستوجب الوقوف عنده والتدقيق فيه ، والبحث عن الصديق الصدوق ، المؤمن الخلوق ، العاقل بالأخلاق ، هو مايجب أن يكون دائما في حساب الأبوين ، لان العوامل النفسيّة قد تنطبع بالرفيق السيء الخلق ولهذا قال ﷺ : « المرء مع من أحب وله مااكتسب »

---

(١) سورة الزخرف : الاية/١٦٧ .

(٢) سورة الفرقان الآيات ٢٨ ـ ٢٩ ـ

(٣) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

وقال : « لا تصاحب إلامؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلاّتقي »[1] .

وقال تعالى : ﴿ قال قرينه : ربنا ماأطغيته ، ولكن كان في ضلال بعيد ﴾[2] .

وإذا كان لابد من توجيه الطفل في صغره التوجيه الإسلامي الخالص ، فإن الاقتداء برسول الله ﷺ ، هو أكمل المحاسن التربوية وأغناها ، وأسرعها علاجاً ، وأقومها سبيلاً ، وأثمرها نتاجاً ، وكيف لا وهو ﷺ « الأسوة الحسنة » ﴿ لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾[3] .

وقد دلنا رسول الله ﷺ عن قرين السوء ، والقرين الصالح والفرق بينهما ، والناتج عن كل منهما فقال : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك[4] ، أو تشتري منه ، أو تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، أو تجد منه ريحاً منتنه »[5].

وقال ﷺ : « المرء مع من أحب ، وله ماكتسب »[6] وقد حذّرنا رسول الهدى من قرناء السوء صراحة ، وتبيانا لما قد يلحق من الضرر المؤكد فقال : « إياك وقرين السوء فإنك تعرف به »[7] .

وإن الآباء والأمهات ليخطئون خطأ مروّعاً ، حين يقولون : بأن الطفل لا يؤخذ على فعل ولايلام على سلوك ، وذلك لقلة تجربته في الحياة ،

---

(١) الترمذي ٥٩٥/٤ ورقة ٢٣٨٥ ، و ٦٠١/٤ ورقمه ٢٣٩٥

(٢) سورة ق : الآية « ٢٧ »

(٣) سورة الأحزاب : الآية « ٢١ »

(٤) يحذيك : يعطيك .

(٥) البخاري ٧٤١/٢ ورقمه ١٩٩٥ و ٢١٠٤/٥ رقم ٥٢١٤ ومسلم ٢٠٢٦/٤ ورقمه ٢٦٢٨

(٦) الترمذي ٥٩٥/٤ ورقمه ٢٣٨٦ ، وصحيح مسلم ٢٠٣٤/٤ ورقمه ٢٦٤٠ بلفظ « المرء مع من أحب » وكذلك في صحيح البخاري ٢٢٨٣/٥ رقمه ٥٨١٧ ، وفيه أكثر من حديث .

(٧) رواية ابن عساكر : في الجامع الصغير ٣٩٢/١ رقمه ٢٨٩٠

لأنّ الحقيقة العلميّة تخالف هذا المفهوم . « فقد يخطىء الوالدان والمربّون أثناء تعليم الطفل الاتجاهات الأخلاقيّة ، والسلوك الأخلاقي ، فقد يزجرونه على سلوك اليوم ، ويتسامحون بالنسبة لنفس السلوك في يوم تال ، وهو لا يفهم سبباً لذلك ، إنهم يطالبونه دائماً بإطاعة تعليماتهم ، ولكننا نعلم أن أفضل قاعدة لتعليم السلوك الأخلاقي هي أن نقول للطفل : افعل كما نفعل ، وليس افعل كما نقول لأن الطفل يتعلم من الكبار المحيطين به .

والطفل في هذه المرحلة لا يعرف لماذا هذا السلوك صح ، ولماذا ذلك السلوك خطأ ، إنه فقط يتعلم أن هذا السلوك يقال له صح ، وذاك يقال له خطأ »[1] .

إن الحياة في امتدادها الزمني تقوم على موضوع أخلاقي تربوي يساير كل المراحل الحياتية ، ويرتقي معها ، متجدداً متكاملاً ، وهكذا كانت أخلاق رسول الله ﷺ كاملة محكمة متجدّدة ، فقال تعالى عنه ﷺ : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فكانت حياته أخلاقاً ، وأخلاقه حياة ، وحياته أسوة حسنة ، من سلكها نجا ، ومن تركها غرق في مهاوي الضلال ، وانساق وراء معميات تدفع به نحو الهاوية ، أو إلى غواية تدركه بعدها المهالك .

ولإتمام الفائدة القصوى في تربية الأولاد سنذكر هنا ماذكره الإمام الغزالي رضي الله عنه في تنشئة الصبيان ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم .

٣ ـ اختلاف الزوجين :

يستخدم الرجل في أكثر الأحيان وجود الولد كوسيلة للضغط على الأم ، لأنها لاتستطيع الاستغناء عن ولدها وهو في مرحلة الاحتضان ، وهذا مخالف للشريعة السمحة ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلّا وسعها ﴾[2] . فكما أنها في مرحلة

---

(١) حامد عبد السلام زهران علم نفس النمو ص ٢٦٥

(٢) سورة البقرة : الآية « ٢٣٣ »

الاحتضان ، فكذلك المرأة تحتاج إلى احتضان في هذه الفترة الدقيقة ، مرحلة تنامي الشخصيّة في الطفل ، فهو بحاجة إلى حنان ورحمة ولعب . ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل في سماحته ولطفه ، وبيّن الكيفيّة التي بها يتعامل الزوجان ، وهي الرفق والطاعة فيما يرضي الله والرسول ، والواجب الديني ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « ياعائشة إن الله رفيق يحبّ الرفق ويعطي على الرفق مالايعطي على العنف . ومالا يعطي على ماسواه »[1] . والرفق هنا ليس للزوج فقط ، وإنما في معاملة الأسرة عموماً .

والحياة السعيدة تبدأ بالاستقرار النفسي لكلا الزوجين ، ولا يمكن أن تكون لواحد دون الآخر ، وقد يخطىء الزوج كما تخطىء الزوجة ، وهنا يأتي دور العقل الذي يعفو عن الزلة مالم تكن طعنة في الشرف ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مانقصت صد قة من مال ، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[2] ولذلك قال تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ .

إنّ كثيراً من الأزواج والزوجات يدعي حبّ الآخر والتضحية من أجله ، ولكن الحبّ لايظهر فعله ولا حقيقته إلا في لحظة وقوع خطأ ، أو في حالة غضب لزلّة ما ، كلاماًكانت أم تصرفاً ، فإن كان العفو فذلك الحب وإلاّ يكون زيفاً وادعاء وكلاماً . والرسول ﷺ يقول : « ليس الشّديد بالصُّرعَة ، إنما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[3] .

إن للزوج وظيفة اجتماعية كبرى ، وهي تأسيس المجتمع على الفضائل وصلاح الحال ، ولا يمكن أن يؤدي الزواج وظيفته المقدسة إلا إذا تعامل الزوجان بالحق والواجب ، ومن أجل الحق والواجب ، لأن النزاع بين

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٠٤/٤ رقمه ٢٥٩٣

(٢) الحديث في الجامع الصغير ٢:٤٥٤ رقمه ٨١٢٠

(٣) صحيح مسلم ٢٠١٤/٤ رقمه ٢٦٠٩

الزوجين يؤدي إلى تشرّد الأولاد ، أو ضياعهم في متاهة الانشغال عنهم في خلافات قد تكون باهتة سخيفة لا قيمة لها ، ومانرى أكثرها إلا محاولات من الأزواج أو الزوجات لغرض الرأي والتظاهر بالقدرة على التحدّي للآخر ، من أجل تطويعه وإخضاعه .

فمن أجل الأولاد الذين هم أمانة ، ومن أجل الحب الذي هو أقدس الروابط الاجتماعية ، ومن أجل الوظيفة الاجتماعية المثلى ، ينبغي على الأزواج الابتعاد عن الخلافات والشجار، لكي لاينعكس ذلك سلباً على الأولاد وتعرضهم للضياع أو التشتت النفسي ، إضافة إلى أن الحق الزوجي مسؤولية أمام الله ورسوله والمؤمنين ، وصون هذه المهمة فرض على الزوجين ولذلك قال ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[1] . مبيناً الحق في رعاية الزوجين كل للآخر ، من أجل رعاية الأولاد وحقوق الآخرين ، وقد قال : « إنّ لزورك[2] عليك حقاً ، إنّ لزوجك عليك حقاً »[3] وذلك منعاً للتنازع والشجار ، لأن الحياة تصبح أشبه بالجحيم المتّقد الذي يشعل كل ماحوله .

وترى بعض النساء والرجال يختلف السلوك عندهم خارج المنزل عنه في داخل المنزل ، فالابتسامة واللطف والسخاء والعلم وغيرها خارج المنزل ، وأما في داخله المنزل فالغضب والصياح والضرب والفجور وغيرها ، وقد قال ﷺ لامرأة « زوجُك وولدك أحقّ من تصدّقت به عليهم »[4] ومن الرجال من يثور إذا أنفقت المرأة شيئاً من مال زوجها وهي في بيته تشاركه الحياة ومآسيها ومتاعبها ، وذلك حقها مالم يكن إنفاق هدر وتبذير . يقول ﷺ : « إذا تصدّقت المرأة من طعام زوجها ، غير مفسدة ،

---

(١) الحديث في صحيح البخاري ٣٠٤/١ رقمه ٨٥٣ وقد مرّ .

(٢) الزّور : الضيف ـ وقوله ﷺ « ولزورك » أي ولمن يضيفك .

(٣) صحيح البخاري ٦٩٦/٢ رقمه ١٨٧٣

(٤) صحيح البخاري ٥٣١/٢ رقمه ١٣٩٣ برواية طويلة .

كان لها أجرُها ولزوجها بما كسب ، وللخازن مثل ذلك »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن ، بالمعروف . أي بماجرت به عادة أمثالهن في بلدهنّ من غير إسراف ولا إقتار ، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره ، كما قال تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلّف الله نفساً إلا ماآتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾[2] .

قال الضحّاك : إذا طلّق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها .

وقوله « لا تضار والدة بولدها » أي بأن تدفعه عنها لتضرّ أباه بتربيته ، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه « اللبأ »[3] الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً ، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ، ولكن إذا كانت مضّارة لأبيه فلا يحل لها ذلك ، كما لا يحلّ له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ، ولهذا قال : « ولا مولود له بولده » أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها .

أما إذا أرادا فصالاً وهما متراضيان بما فيه مصلحة الطفل فلا بأس في ذلك ، وكذلك إذا أرادا إرضاع طفلهما بالاتفاق فلا بأس أيضاً .

وقد يؤدي الإختلاف بين الزوجين بعد مرحلة الاحتضان والرضاع ، كما يلجأ بعض الأزواج إلى الصراخ والضرب وغيره كعقوبة للزوجة وهذا مالايرضاه الشرع في حال من الأحوال ، وقد وضع رسول الله ﷺ الضوابط والإرشادات بحيث لاشقاق ولاخلاف إذا تم التقيّد بها ، يقول ﷺ : « اتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن

---

(١) البخاري ٢/٣٠ رقمه ١٣٧٠ ومسلم في صحيحه ٢/٧١٠ رقمه ١٠٢٤

(٢) سورة الطلاق : الآية «٧»

(٣) اللبأ : الحليب .

بكلمة الله ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن »[1]

وقد شكت امرأة للنبي ﷺ زوجها الذي كان يضربها ، فقال للزوج « يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يعانقها ولا يستحي »[2] .

وقد قال تعالى : ﴿ وعاشروهنّ بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[3] ويقول ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[4] .

ولهذا فلابد للزوجين العاقلين من أن يغضّا الطرف عن بعض الأمور التي تبدو للنظر على أنها نقائص ، وبعض الطباع التي تحتاج إلى وقت لصهر العلاقة بينهما ، وإيجاد التلاؤم والانسجام وفي هذا يجب أن ينظر إلى محاسن الطباع ومكارم الأخلاق لقوله ﷺ « لايفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً ، رضي منها آخر »[5] .

٤ ـ التعاون بين الزوجين :

لكي يكونا قدوة حسنة ، لابد من إخفاء الخصومة والشقاق أمام الأطفال ، وإظهار التعاون وعبارات المحبّة التي تزرع في نفس الطفل طباع المودّة والألفة والرحمة ، تأسياً واقتداءً برسول الله ﷺ ، فقد كان يساعد في أعمال المنزل ، فعن عائشة رضي الله عنها حين سئلت : ماذا كان يصنع رسول الله ﷺ في بيته ؟ قالت : كما يصنع أحدكم ، يشيل هذا ، ويحط

---

(١) رواه مسلم : وأبي داود في « المناسك » ٥٦ وابن ماجه ، مناسك « ٨٤ » والدارمي مناسك ٣٤

(٢) صحيح البخاري ١٨٨٨/٤ رقمه ٤٦٥٨ و ٢٢٤٦/٥ رقمه ٥٦٩٥ و ١٩٩٧/٥ رقمه ٤٩٠٨ ، وصحيح مسلم ٢١٩١/٤ رقمه ٢٨٥٥

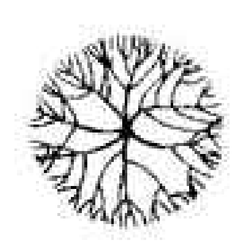
(٣) سورة النساء : الآية « ١٨ »

(٤) سورة النساء : الجامع الصغير ٥٥٥/١ رقمه ٤١٠٠

(٥) رواه مسلم : ١٠٩١/٢ رقمه ١٤٦٩

هذا ، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع لهنّ اللحم ، ويقمّ [1] البيت ، ويعين الخادم في خدمته »[2] وكان ﷺ يقول : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وألطفهم بأهله »[3]

ولابد للرّجل من أن يعرف أن المرأة شريكة الحياة ، وعلى المرأة أن تعرف أن الرجل هو الظّلّ الذي تستفيء به والصدر الحنون الذي تتكىء عليه ويضمها بالحنان والعطف والحب ، وهذا مايجب المحافظة عليه وخاصة أمام الأولاد ، فلا يجب الإيذاء في الكرامة ، أو في الرزق ، أو في البدن ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ماضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط ، ولا خادماً ، ولا ضرب شيئاً قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله » .



(١) يقمُّ البيت : كنسه .

(٢) فتح الباري «شرح صحيح البخاري» ٥/٢٢٤٦ رقم ٥٦٩٢ .

(٣) الجامع الصغير ١/١٨٤ «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم . رقم الحديث/١٤٤١/ .

في التربية

قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تكرهوا عبادة الله إلى أولياء الله »(١) .

كل شيء في حياتنا أمانة ، وكل أمانة مودعة ستسترجع إلى صاحبها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فإن لم تؤدّ الأمانة ، كان ذلك نفاقاً ، وهذا ثلث النفاق ، أو ربعه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال النبيّ ﷺ : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »(٢)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع من كنّ فيه كان منافقاً ، ومن كانت فيه خلة منهن ، كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذاحدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »(٣) .

وما من إنسان إلاّ وطلب من الله سبحانه أن يرزقه زوجة صالحة ، وولداً تقرّ به عينه ويرى خلفه ذكراً كان أم أنثى ، وحين استجاب له الله سبحانه ، كان بمثابة أمانة وضعها بين يديه وعليه يقع صون الأمانه .

ورسالة الإسلام التي جاء بها النبي الكريم محمد ﷺ ، هي دعوة إلى تحمّل مسؤوليّة الأمانة في تربية الأبناء وإعدادهم الإعداد الأمثل ، ليكونوا

---

(١) الحديث في الجامع الصغير للسيوطي ١/٣٣٩ ورقمه ٢٥٠٩

(٢) الحديث في الجامع الصغير للسيوطي ١/٤٧٠ رقمه ٣٤٧٣ ، رواه البخاري ١/٢١ رقم /٣٣/ ومسلم ١/٧٨ رقم ٥٩

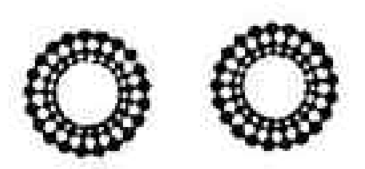
(٣) رواه البخاري ١/٢١ ورقمه /٣٤/ ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ١/٧٨ ورقمه ٥٨ متابعة ١٠٦ والجامع الصغير ١/٨٢٠ رقم ٩١٦

من الجيل الصالح القوي المؤمن الذي يتحمل مسؤولية متطلبات الحياة ، ويحمل عن الآباء والأمهات همومها واحتياجاتها .

ولذلك جاء القول الفصل في الأمر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾[1] .

وليس القيام على شؤونهم وتربيتهم منّة من الأب والأم ، وإنما هي فريضة عليهم تتساوى الواجبات والفرائض الأخرى « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها »[2] .

وبالأمر النبويّ أيضاً تتم التربية على قواعد وأسس علميّة تحمي الولد وتعصمه من الجنوح « أدبوا أولادكم وأحسنوا أدبهم » كما عرفنا في أحاديثه ﷺ .



(١) سورة التحريم : الآية « ٦ »

(٢) صحيح البخاري ١/٣٠٤ رقمه ٨٥٣ وورد في صفحات كثيرة وأرقام أخرى .

التربية عند الإمام الغزالي

اعلم ان الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبيان أمانة عند والديهم ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقص وصورة ، وهو قابل لكل مانقش ومائل الى كل مايمال به اليه ، فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له مؤدب ، وإن عوّد الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر في رقبة القسيم عليه والوالي له، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾[1] ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ، وصيانته بأن يؤدبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب اليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وارضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال ، فان اللبن الحاصل من الحرام لابركة فيه ، فاذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه الى مايناسب الخبائث .

ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل

---

(١) سورة التحريم الآية «٦» .

عند البلوغ فالصبي المستوي المستحي لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه ، وأول مايغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وان يأكل مما يليه وأن لايبادر الى الطعام قبل غيره وأن لايحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لايسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالي بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لايصير بحيث يرى الأدم حتماً ، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان ، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبي ثوبا من ابرسيم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه ومايرغبه فيه فان الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ، ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباءالذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولايكاشفه ولايظهر له أنه يتصور أن يتجاسر احد على مثله ، ولاسيما إذا ستره

الصبي واجتهد في اخفائه ، فإن اظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لايبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاقب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له :

إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولاتكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح ، وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفراش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم ، بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك تعود فعل القبيح

ويعوّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسل ، ويعوّد أن لايكشف أطرافه ولايسرع المشي ، ولايرخي يديه بل يضمها الى صدره ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته ، بل يعوّد التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة ان كان من أولاد المحتشمين ، بل يعلم أن الرفعة في لاعطاء لافي الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة .

وان كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة ، وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيها ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حبّ الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل الأكابر أيضاً ، وينبغي أن يعود أن لايبصق في مجلسه ولايمتخط ولايتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره

ولايضع رجلا على رجل ولايضع كفه تحت ذقنه ، ولايعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل .

ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له ان ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأسا ـ صادقا كان أو كاذبا ـ حتى لايعتاد ذلك في الصغر ، ويمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود أن لايتكلم الا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، وسن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فان ذلك يسري لامحالة من القرناء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء .

وينبغي إذا ضربه المعلم أن لايكثر الصراخ والشغب ، ولايستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان .

وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لايتعب في اللعب ، فان منع الصبي من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا .

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدّبه ومن هو أكبر منه سنا قريب أو أجنبي ، وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم .

ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لايسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب

ويعلم كل مايحتاج اليه من حدود الشرع .

ويخوّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، وكل مايغلب على الصبيان ، فاذا وقع نشوؤه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له ان الأطعمة أدوية وانما المقصود منها أن يقوى الانسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لاأصل لها اذ لابقاء لها ، وان الموت يقطع نعيمها ، وانها دار ممر ، وان الآخرة دار مقر ، وأن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن الكيّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان ، فاذا كان النشوء صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر .

وان وقع النشوء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس .

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فان الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يميلان به أحد الجانبين .

قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يلد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه » .

قال سهل بن عبد الله التسترى :

كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر الى صلاة خالي محمد بن سوّار فقال لي يوما :

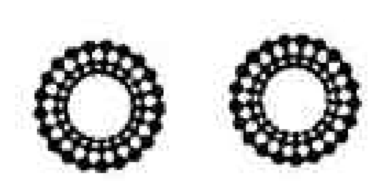
ألاتذكر الله الذي خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال :

قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير ان تحرك به لسانك ، الله معي الله ناظر الي الله شاهدي ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال : قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال : قل ذلك

كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع في قلبي حلاوته ، فلما كان بعد سنة قال لي خالي : احفظ ماعلمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر فانه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري ، ثم قال لي خالي يوما : ياسهل من كان الله معه وناظرا اليه وشاهده أيعصيه ؟ اياك والمعصية ، فكنت أخلو بنفسي فبعثوا بي الى المكتب فقلت : اني لأخشى أن يتفرق عليّ همي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع ، فمضيت الى الكتّاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة ، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني الى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا .

فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العبادني فسألته عنها فأجابني ، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت الى تستر فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشترى لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي ، فأفطر عند السحر على أوقية كل لسلة بحتا من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة .

ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة . ثم خمسا ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ، ثم رجعت الى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى قال أحمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى .



الفصل الثاني

١ ـ أفضل المعاملات في الحياة الزوجية
٢ ـ القناعة
٣ ـ معنى الزواج لغة واصطلاحاً
٤ ـ الحرث والزرع
٥ ـ ما يكره الرجل في المرأة
٦ ـ المرأة الزوجة في القرآن الكريم
٧ ـ القيم الجمالية للمرأة في الحديث الشريف
٨ ـ حبّ المرأة لزوجها وبيتها
٩ ـ الأسرة في القرآن الكريم
١٠ ـ الخطبة كيف ولماذا
١١ ـ المرأة انسانة مكرّمة عند رسول الله ﷺ
١٢ ـ الطفولة والرجولة القدوة
١٣ ـ الرجل القدوة ـ أوصافه
١٤ ـ عظمة في كل شيء
١٥ ـ منطقة ﷺ

أفضل المعاملات في الحياة الزوجيّة

١ - الرفق :

إن الإنسان العربي مازال يعمل باعتزاز أجوف يحمله على التكبّر حتى على أفراد أسرته ، لايراعي شرعاً ولا عقلاً ولا منطقاً ، ولا يساوي بين نفسه وأفراد أسرته ، فهو صاحب الكلمة التي يفرضها فرضاً ، ولا يقبل لفرد منها رأياً ولو كان صواباً ، ويرى في سماع رأي الولد أو الزوجة عيباً ، والموافقة إهانة . يستبد بكل رأي ، ويفعل مايريد وإن أراد فرد من أفراد أسرته نصحه ثار وغضب ، وأنزل العقوبة بدل المثوبة ، والإذلال بدلاً من المحافظة على كرامة الناصح . ثم يدعي الإسلام ، وينطق بالمثل على أنه ملتزم بالقيم ، والمتعامل بالأخلاق ، والمطبق للعدل والشرع .

وفي وضع الإسلام قواعد التعامل في المجتمع على أسس تضمن الكرامة للجميع ، والحريّة للجميع ، والحياة الآمنة المطمئنة المنصفة لكل فرد فيه .

وفي ضبط أصول التعامل يقول تعالى : ﴿ إنّا يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[1] لأن العدل أساس الحياة حيث يدخل جميع أفراد المجتمع في ضمانة الحق الذي فرض لهم ، وتحت الواجب الذي فرض عليهم ، دون استثناء . ولذلك أمر الإسلام بالرفق واللين والتواضع ، واتساع النفس الإنسانيّة المسلمة لتصبح وعاء تذوب فيه حالات الغضب ، ومعكرات صفو الحياة ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾[2] .

---

(١) سورة النحل : الآية « ٩٠ »

(٢) سورة آل عمران : الآية « ١٣٤ »

ولعل لين الطباع ، وحسن القول ، والحلم ، هي أركان تؤسس عليها التربية سواء في البيت أو المجتمع ، أو في التعامل الفردي والاجتماعي ، وهي التي تجتمع عليها النفوس ، وتتآلف القلوب ، وترتوي ظماؤها ، وقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى الموصوف بقوله تعالى : ﴿ ولو كنت غليظ القلب لانفضّوا من حولك ﴾[1] .

ومن هنا كان على الوالدين أن يقيما العلاقة بينهما زوجاً وزوجة ، أو والدين وأبناء ، على أساس الهدي النبوي ، ويعود كل منهم إلى من حوله بالرفق واللين .

يقول ﷺ : « إنّ الله يحب الرفق في الأمر كله »[2] كضرورة لتعامل في الحياة ، وكأصول للتربية الإسلامية التي تقوم على الرحمة ، والتي تعامل بها رسول الله ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم . ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[3] . وقال رسول الله : « من يحرم الرفق ، يحرم الخير كله »[4] ذلك لأن « الرفق » إنما هو ثمرة من ثمرات حسن الخلق ، يهيء الفكر إلى الابداع ، ويفتح أمامه آفاقاً رحبة من المعرفة ، إضافة إلى أن صاحبهُ المتطبع به ينال أفضل الثواب وخير الجزاء وقد قال ﷺ : « إنّ الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لايعطي على العنف وما لايعطي على ما سواه »[5] وقد أوصى ﷺ أهله بالرفق وحضهم عليه « ياعائشة ارفقي ، فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق »[6] .

إن في الرفق انبساط النفس واعتدالها ، فتتقبل من الغير الرأي

(١) من سورة آل عمران « ١٥٩ »

(٢) رواه البخاري ٥/٢٢٤٢ رقمه ٥٦٧٨

(٣) سورة الفتح : الآية « ٢٩ »

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٠٠٣ رقمه ٢٥٩٢ وأبي داود ٤/ ٢٥٥ رقمه ٤٨٠٩

(٥) صحيح مسلم ٤/٢٠٠٤ رقمه ٢٥٩٣

(٦) مسند الإمام أحمد رواية مسلم والبخاري رقم ٥٦٧٨

والنصيحة ، وفيه يستقيم التصرف ، ويهتدي المرء إلى السّداد والرشاد ، ويكون الصواب أقرب وعلى المربين والآباء والأمهات أن يتحلّوا بالرفق وحسن الاستماع ، لكي يحسنوا التربية ، لأنّ التربية هي : صقل الطبع وترويضه وإعداده للأداء الأمثل ، وهي العون على البرّ والتقوى والاستقامة ، والأدب . وقد قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها ، و كانت معه في سفر على بعير صعب ، فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً « يا عائشة عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ، ولاينزع من شيء إلا شانه »[1] .

فالحلم مع الأهل والولد ، يعطي الوالد ثقة منهم به ، فيكسب ودّهم ، ويفتح الطريق إلى قلوبهم لمعرفة ما يجول بدواخلهم النفسيّة ، ويمكنك بحكم وضع الدليل ، ويعطي الحلول المناسبة لكل إشكال ، والرفق بهم يقوي الرابطة ، وينمي المودة والثقة ، ويحمل على التقويم والمكاشفة ، وتلك هي صفات المربي المؤدب . قال تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وإذا مرّوا باللغو مروا كراما ﴾[2] ، فكيف إذا كان المخاطب ولداًأو زوجاً ؟

والحلم في حقيقته العلمية ارتياح النفس واعتدالها ، والرفق ناتج عن الحلم ، وفي هذه الحالة يكون العقل هو المتحكم ، والسّداد هو الضابط للحركة والفعل ، وهو رداء السكينة التي يتحلّى بها المرء في حلمه ورفقه ، وهو الذي يحمي الأسرة من العصبيّة الهوجاء والغضب الذي يسطو على القيم ، ويمزّق الشمل ، ويذهب بكل فطرة حسنة ، وهذا ما حذر منه رسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله مر لي بعمل وأقلل ، قال : « لاتغضب » ، ثم أعاد عليه فقال : « لاتغضب » .

---

(1) صحيح مسلم ٢٠٠٤/٤ رقمه ٢٥٩٤ وسنن أبي داود ٢٥٥/٤ رقمه ٤٨٠٨

(2) سورة الفرقان : الآية «٦٣»

القناعة

القناعة : هي الرضى بما هو كائن ، ويمكن الوصول إليها بالصبر ، والعلم ، والإيمان ، والعمل ، وكثيراً ماتحصل خلافات في الحياة الزوجيّة نتيجة لعدم وجود القناعة بالمقسوم من الرزق ، وإذا كان مادرج على الألسنة هو « كاد الفقر أن يكون كفراً »[(١)] إلا أنّ مايجب الأنتباه له هو أن ينقطع الإنسان عن الطمع في مال الغير من خلق الله ، ويحرص على كسبه الحلال وعمله الدائب . يقول رسول الله ﷺ : نعم المال الصالح للرجل الصالح »[(٢)] وإن القناعة ثوب الطمأنينة ، وواحة الرضى ، وهدأة النفس ، حيث تزهد بأموال الناس .

والمال أحد الزينتين ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾[(٣)] ، ولكن إذا كان حلالاً في مصدره وطريقة كسبه ، قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس »[(٤)] .

يقول ﷺ وهو ينهى عن الطمع وشدّة المعاناة في البحث عن المال وشدة حبهم له : « أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ماكتب له ، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة »[(٥)] . ولو كان في المال راحة للضمير ، وهدوء للنفس ، لكان رسول الله ﷺ أقدر على

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان .

(٢) اخرجه أحمد والطبراني في الأوسط .

(٣) سورة الكهف : الآية « ٤٦ »

(٤) عن أبي هريرة في رواية الجامع الصغير : « اجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما كتب له منها » ٢٩/١ رقمه ١٩١

(٥) أخرجه ابن ماجه .

طلبه ، ولكنه عاش التقشف والخشونة التي سنرى جانباً منها في القسم التالي .

وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار » وقال أبو هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً »[1] .

فالحياة الزوجيّة لا تبنى على الطمع والجشع ، ولا على المال وأنواع الملذائذ ، ولا على أنواع الطعام والشراب ، بل على أغنى من ذلك وأثمن ، إنها تبنى على الحب والإيمان ، على القناعة والرضى ، على العمل والصبر .

إن الفقر الحقيقي هو التكاسل عن العمل والتقاعس عن الكسب ، والطمع في مال الآخرين والنظر إلى ما في أيديهم .

إن تقوى الله ومراقبته في القول والعمل ، والاطمئنان بذكره ، وتجنب الهوى والغواية والشح ، واتباع القناعة بالمقسوم هو بداية الطريق إلى سعادة الزوجيّة الهانئة .

فالتربية على القناعة والرضى ، غير التربية على حب المال والطمع والجشع ، وهي اعتياد على استهلاك ما هو موجود ، فتربية الطبع هي ذاتها تربية النفس ، وإعدادها للتكيّف مع العامل الاقتصادي المتوفر ، وهي تحريض ودافع إلى العمل الشريف النبيل في سبيل الرزق الحلال ، واللقمة المباركة .

وهنا لا يظنّن أحد أننا نفضل الفقر ، فذلك غير صحيح ، ولكننا ندعو إلى القناعة فإذا كان المال الحلال موجوداً فنعمت القناعة مع البذل

---

(1) رواه جامع الصغير للسيوطي ٢/٢٥٠ رقم ٦٤٢٢ .

والسخاء فيما يرضي الله ، وهنيئاً لزوجين وأولاد يعيشون كما أراد الله ورسوله ﴿ وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(١) .

فمن ملك المال عليه أن لا يبذر ، ومن لم يملك فعليه أن يجتهد ويعمل ، لقوله ﷺ : « ماعال من اقتصد »(٢) وقال ﷺ : « الاقتصاد وحسن السمت ، والهدي الصالح ، جزء من بضع وعشرين من النبوة »(٣) وقال ﷺ : « التدبير نصف المعيش » والاقتصاد نصف العيش ، وحسن الخلق نصف الدين ، والاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل ،وحسن السؤال نصف العلم »(٤)

إن النظر إلى حياة المترفين تزعزع النفوس الضعيفة ، والانشغال في ضرورات المستقبل تقلق النفس ، وعلى الكل أن يكونوا واثقين بوعد الله تعالى وقوله : ﴿ ومامن دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾(٦) ولكن هذا مع العمل الشريف ، والسعي الدائم . وإن السعادة التي يتغنى بها الناس إنما هي « الرضى » وهي الإكتفاء بالحلال ، وهنيئاً لأزواج وأولاد خلصتهم القناعة من الطمع ، وأرضت نفوسهم بالمقسوم ، ورفرفت عليهم أجنحة الرضوان والسعادة ، وربوا أنفسهم عليها ، وأدبوها ، فصانوها عن الدنايا ، وصانتهم عن الأهواء ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله

(١) سورة الملك : الآية « ١٥ »

(٢) أخرجه أحمد والطبراني والجامع الصغير ٢/٤٣٠ رقمه ٧٩٣٩

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٤/٢٤٧ ـ ٢٤٨

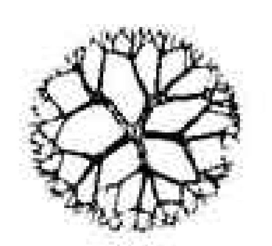
(٤) الجامع الصغير من رواية أنس ـ وابن عمر رضي الله عنهما في حديثين ٣٠٧٠ و ٣٠٧١ في ١/٤١٧

(٥) سورة هود : الآية « ٦ »

(٦) سورة الأعراف : الآية « ٩٦ »

عليه في المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه »[1] .

وقد قال تعالى : ﴿ أأنتم ترزقونه أم نحن الرازقون ﴾[2] . وعن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه يعلمنا مما أوحي إليه . فجئته ذات يوم فقال : « إن الله عز وجل يقول : ﴿ إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون له ثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ﴾[3] .



---

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(2) سورة الواقعة : الآية

(3) أخرجه أحمد البيهقي في الشعب .

معنى الزواج لغة واصطلاحا

الزوج للمرأة : البعل

وللرجل : الزوجة ، بالهاء ، وفي المحكم الرجل زوج المرأة ، وهي زوجه وزوجته . وأباها الأصمعي بالهاء . وزعم الكسائي عن القاسم بن معن : أنه سمع من أزد شنوءه بغير هاء ، والكلام بالهاء . ألا ترى أن القرآن جاء بالتذكير[1] : يقول تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[2] هذا كله قول اللحياني .

قال بعض النحويين : أما الزوج فأهل الحجاز يضعونه للمذكر والمؤنث وضعا واحدا ، تقول المرأة : هذا زوجي ، ويقول الرجل : هذه زوجي ... تعالى : ﴿ وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ﴾[3] أي امرأة مكان امرأة وفي المصباح : الرجل : زوج المرأة ، وهي زوجه « أيضاً » والجمع أزواج[4] .

وقال الجوهري : ويقال أيضاً : هي زوجته بقول الفرزدق :

وإن الذي يسعى يحرّش زوجتي   كساع إلى أسد الشرى يستبيلها[5]

وامرأة مزواج : كثيرة التزوج ، والتزاوج[6] .

---

(١) تاج العروس للزبيدي مادة « زوج » .

(٢) سورة البقرة : الآية « ٣٥ » والأعراف « ١٩ »

(٣) سورة النساء : الآية « ٢٠ »

(٤) تاج العروس نفسه .

(٥) ديوان الفرزدق .

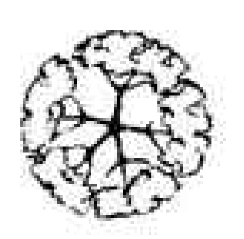
(٦) تاج العروس نفسه .

وزوج الشيء بالشيء وزوجه اليه . وفي التنزيل ﴿وزوجناهم بحور عين﴾[1] أي قرناهم .

وأنشد ثعلب :

ولا يلبث الفتيان أن يتفرقوا   إذا لم يزوج روح شكل إلى شكل[2]

والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة ولم تأت كلمة «زوج» مع الهاء اطلاقاً . فالذكر زوج ، والأنثى زوج ، وهو الاقتران بعقد النكاح المتعارف عليه ، يقول تعالى : ﴿أو يزوجهم ذكراناً واناثاً﴾[3] أي يقرنهم ، وكل شيئين اقترن أحدهم بالآخر فهما زوجان[4] والزوج : ما به عدد ينقسم بمتساويين[5] والزوج : كل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً يقال له زوج ، وتقول : عندي زوجان من الحمام تعني ذكراً وأنثى ، وكذلك كل اثنين لا يستغني أحدهما عن صاحبه[6] .



(١) سورة الدخان : الآية «٥٤» والطور «٢٠»

(٢) في عيون الأخبار ٨/٣ منسوب لعبد الله بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وفي تاج العروس لثعلب .

(٣) سورة الشورى : الآية «٥٠»

(٤) تاج العروس نفسه .

(٥) التعريفات للجرجاني ص ١٢٠

(٦) الكليات لأبي البقاء : ٤٠٤/٢

في الزواج وأهمّيته

بعد الذي قدمناه في أمور التربية ، وما أشرنا إليه من موجباتها ، تأتي مسألة الاختيار للحياة الزوجيّة ، لأن مهمة التربية هي من واجبات الزوجين ، وهما يبدآن تكوين أسرة مؤسسة على سنة الله ورسوله محمد ﷺ ، يقول تعالى :﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾.(1)

وقال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾(2) إن النبي ﷺ علّمنا ديننا وثبّت يقيننا ، وأوضح مسالك دروبنا في الحياة الدنيا ، وبين لنا منازل الصالحين في الآخرة ، وأفهمنا أنّ الزواج وجد من أجل صلاح العباد ، وهدوء أحوالهم ، وهو في الوقت ذاته متعة لهم ، وعون على فطرتهم واستقامة أمورهم ، وحفظ لبقاء النوع البشري المكلّف بإقامة شعائر الدين وفرائضه .

وقد قال ﷺ : « أربع من سنن المرسلين ، الحياءُ ، والتعطّرُ ، والسّواكُ ، والنكاحُ »(3) . فكان ذلك للمسلمين شرعة ومنهاجاً من نبي الهدى محمد ﷺ .

وقال ﷺ : «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »

---

(1) سورة الروم : الآية « 21 »

(2) سورة الأعراف : الآية « 189 »

(3) الحديث في الجامع الصغير 1/120 رقمه 919

(4) الحديث في صحيح البخاري 5/1949 رقمه 4776 ، وصحيح مسلم 2/1020 رقمه 1401

لماذا الزواج ؟

تبحث النفس البشريّة عن ملجأ تأوي إليه ، في عاطفتها واندفاعها الغريزي الجنسي ، دفاعاً عن ذاتها في تحقيق رغبتها وإشباعها ، واندفاعاً وراء الشهوة الموجودة في أصله الخلقي كما عرفنا سابقاً . فتعود هذه النفس بعد تعب ولهفة وراء لقمة العيش ومتاعب نهار طويل ، لتلقي بأعبائها إلى السكن الوجداني الذي يحتضن عنف الشهوة والغريزة ، فيخمد الثورة ، ويريح هائجة النفس ، وهذا السكن هو « الزوجة » التي تبادله الحب والاندفاع الغريزي ، ليكملا الفعل والانفعال في توحد فطري موجود بالتكوين البشري .

فالمرأة تحتمي في حضن زوجها ، والرجل يركن إلى الدفء والحنان ، وتشكل الرحمة في كل منهما راحة وسكناً ، فتلقى الهموم جانباً ، والمشكلات بعيداً ، وتسود العاطفة فيكون كل منهما للآخر لباساً يغطيه ويستره ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[1] في تبادليّة المشاعر والأحاسيس بحيث ينتظم الزوجان بالمودة والرحمة القائمة فيهما ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾[2] وذلك السكن هو الركون بعد سلطة الشهوة ، وسلطانها على الملكات النفسيّة والجسميّة ، فوجد الزواج الحلال ، والندب إلى النكاح استحباباً وأمراً . فهو استحباب للإشباع الجنسي بالحلال ، وأمر به منعاً لطغيان النفس من اقتحام الحرام ، واقتراف الإثم ، وإيقاف السفاح . ومن هنا كان الزواج تربية للنفس والبدن ، وتطهيراً لهما من الفحش الظاهر والفحش الباطن ، الذي يلهي الملكات ويصرفها عن سويتها .

ومن فضل الله ومنته أن جعل الزواج حلالاً معلناً صريحاً من أجل الإنسان والمحافظة عليه احساساًوحركة وعقلاً وعاطفة ، ولايتوصل الإنسان

---

(١) سورة البقرة : الآية « ١٨٧ »

(٢) سورة الأعراف : الآية « ١٨٩ »

إلى الفضل الذي يريده إلا بالزواج ، لأن الإنسان لايقدر على قتل الرغبة والشهوة في نفسه ، وإن كان ذلك فإنما هو قهر للنفس ، وهذا لم تقبله السنة النبويّة الشريفة بدليل قوله ﷺ : « النكاح سنتي ، فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني » . فعن أنس رضي الله عنه قال : إن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السرّ ؟ فقال بعضهم : لا أتزوّج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم لا أنام على الفراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « مابال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ لكني أصلّي وأنام . وأصوم وأفطر . وأتزوّج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني »(1) . ولكن رسول الهدى قال : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »(2) وسنأتي عليه إن شاء الله .

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾(3) وهذا أمر .

وقال تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾(4) وهذا منع من العضل ونهي عنه . وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذريّة ﴾(5) فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل ، ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرة أعين ﴾(6) . ويقال إن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين . فقالوا : إن يحيى ﷺ قد تزوّج ولم يجامع . قيل : إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة ، وقيل

(1) صحيح مسلم ٢/١٠٢٠ كتاب النكاح ٥ رقمه ١٤٠١

2) نفسه ٢/١٠١٩ والوجاء هو رض الخصيتين ، والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة ، ويقطع شرّ المني كما يفعله الوجاء .

(3) سورة النور : الآية « ٣٢ »

(4) سورة البقرة : الآية « ٢٣٢ »

(5) سورة الرعد : الآية « ٣٨ »

(6) سورة الفرقان : الآية « ٧٤ »

غض البصر ، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له (١) .

الزواج تربية :

إن في الزواج تربية للنفوس والأبدان ، وقد علمنا رسول الله ﷺ ذلك ، مبيناً أهميّة هذه التربية ، فعن علقمة رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع عبد الله بمنى . فلقيه عثمانُ فقام معه يحدّثه . فقال له عثمان : ياأبا عبد الرحمن ألا نزوجك جارية شابّة . لعلها تذكرك بعض مامضى من زمانك ؟ قال فقال عبد الله : لئن قلت ذاك ، لقد قال لنا رسول الله ﷺ : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة (٢) فليتزوّج . فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٣) .

وهنا نلحظ عدة أمور تربويّة خالصة هي من الأهميّة بمكان ، فهي تربية للنفس في الزواج الحلال ، لكي تتمتع بقدراتها التي وهبها الله لها ، فلا تعتدي ، ولا تشتط ، ولا تلهو عن ذكر الله .

وتربية للحواس وأهمها حاسة البصر التي تنصرف إلى الجماليات الأنثويّة مدفوعة بنوازع الرغبة والحصول والتملّك ، ومثيرات الشهوة الجنسيّة التي قد يكون البصر أهم محرّضاتها ، وفي الزواج يكون البصر أقلّ التفاتاً وانصرافاً ، لأن منسوب الدوافع الأخلاقيّة يرتفع ، وترتقي النفس المؤمنة بعفّتها فيقل الميل إلى الغير ، وقد ينعدم إلا إلى الحلال حين تكون النفس قد قنعت بما آتاها الله من فضله وحلال نعمته . وتربية للبدن في إحصان الفرج ، وهو الوسيلة الحركية لفعل النكاح ، وهي الأشد ميلاً حيث تنفعل

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ٢/٢١ - ٢٢

(٢) الباءة : الجماع .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ٢/١٠١٨ - ١٠١٩ باب النكاح/١/ رقمه ١٤٠٠

فتدعو إلى الفتنة طلباً للذّة ، والزواج وحده يستطيع كبح جماح الشهوة وإشباعها ولهذا قال ﷺ : « ثلاثة حق على الله أن يغنيهم : المكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف ، والمجاهد في سبيل الله »(١) فجعل الزواج والجهاد في مرتبة واحدة .

وأما الذي لايستطيع نكاحاً فالصوم يربي النفس ويكبح ثورة الشهوة فيها ، ويشغلها عما هي فيه ، من ميل للجنس أو رغبة في وصال .

وقد نهى ﷺ عن التبتل نفياً قاطعاً ، ولكنه أشار إلى الصوم لمن لم يستطع الزواج لتأديب النفس واكتمال عفتها ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾(٢) .

والتربية في معناها الكليّ ليس الإجهاد بالفعل والحركات وغيرها ، وإنما هي إعطاء الأعضاء حقّها والملكات قدراتها ، والنفس فطرتها ، والعقل تدبره ، والإيمان فعله ، وكل هذا يأتي بتقوى الله فيما أوتي الإنسان ، حتى في الغريزة التي لها الحق في أن تأخذ دورها وتكمل عملها في آلية حركتها التي تناسب طبيعتها وخصائصها ، ولكن باعتدال كما ذكرنا ، لأن الإفراط في كل شي إنما هو غير مرغوب فيه ، ولأنّ الحاجة على قدر المحتاج لانقص ولا زيادة ، وفي هذا يقول الدكتور « الكسيس كاريل » : « من المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي ، ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسيّة حسنة ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوّته »(٣) .

وبعد : فإن الزواج تربية للأنفس والأبدان ، وكل عضو في الإنسان يحتاج إلى تربية ، إذ أن التربية رعاية ، فمن الأعضاء ما يحتاج إلى نمو مستمر كالبدن والبصر والسمع والأجهزة الأخرى ، ونموّها يكون بتطويرها

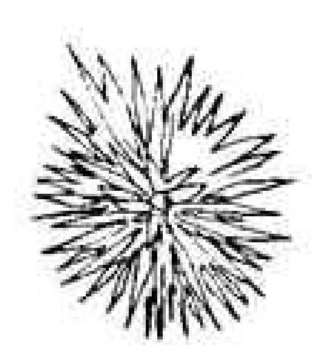
---

(١) صحيح الترمذي ٤/٣٠٠ ـ الحاشية عن النسائي .

(٢) سورة النور : الآية « ٣٣ »

(٣) الإنسان ذلك المجهول ـ الكسيس كاريل ص ١٧٤

وإعدادها وتوجيهها نحو الأسمى ، وانصرافها عن كل الدنايا ورذائل الأعمال . ومنها ما يحتاج إلى تعليم وتهذيب شأنها شأن الأظافر والشعر في الرأس والعانة والإبط وحلقها للطهارة ، ومنها ما يحتاج إلى ترقية مستمرة وارتقاء دائم كالنفس والعقل والبصيرة والإيمان ، وكل ذلك من الممكنات للإنسان لأنه هو الذي يقودها نحو الخير وبرّ الأمان ، وأما الهوى فهو عرض طارىء يمكن تطويعه في الخدمةالروحيّة إلى أن يكون حقلاً للرعاية وذلك حين يتحول إلى حبّ الله ورسوله والإنسان ودينه ، فيكون حبّ الله ورسوله والمؤمنين هوى الإنسان وسلوكه وتفكيره .



الحياة الزوجيّة

سكينة، ومودة، ورحمة »

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودةً ورحمةً ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

إذاً فالخلق قائم على هذا الوجه لأن « حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ، أو من شكل أنفسهم وجنسها ، لا من جنس آخر ، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر .

﴿ وجعل بينكم ﴾ التوادّ والتراحم بعصمة الزواج ، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ، ولا لقاء ، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم .

وعن الحسن رضي الله عنه : المودّة كناية عن الجماع ، والرحمة عن الولد ، كما قال : ﴿ ورحمة منا ﴾ وقال : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾[2] . ويقال : سكن إليه : إذا مال إليه . كقولهم : انقطع إليه واطمأنّ إليه ، ومنه السكن : وهو الإلف المسكون إليه ، فعل بمعنى مفعول . وقيل إن المودّة والرحمة من قِبَلِ الله ، وإن الفرك من الشيطان[3] .

---

(١) سورة الروم : الآية « ٢١ »

(٢) سورة مريم : الآية « ٢ »

(٣) راجع الكشاف للخوارزمي ٣/٢١٨

وهنا نرى التآلف النوعي في التشكل النوعي الواحد للجنس البشري الواحد ، وإن كان هذا الجنس من ذكور وإناث فهو يؤدي وظيفة واحدة ، ونه مهمة واحدة ، وممارسة واحدة بفعل وحركة وأداء ، ذات آلية واحدة ، ولو أن الله تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم ، إما من جان ، أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودّة وهي المحبّة ، والرحمة وهي الرأفة . فإن الرجل يمسك المرأة لها أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، ومحتاجة إليه في الإنفاق ، أو للإلفة بينها وغير ذلك »[1] « إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[2] تلك هي حقيقة طبيعة العلاقة الزوجيّة والحياة الزوجيّة ، التي شرّعها الخالق لخلقه ، نقاء وصلة ، ورحمة ، سكناً ومودّة ، لتبقى دورة الحياة يمارسها الجنس البشري إلى أن يبلغ الكون الأجل الذي يريده الله تعالى .

فالسكن هنا من السكينة ، وهي غاية الأمن والطمأنينة والراحة النفسيّة ، لأنها مالم تكن كذلك ، فلن تتوفر فيه شروط المودة والرحمة ، وبعدها لايمكن أن تقوم الحياة الزوجية بدونها .

ولكنها في حالتها « السكنيّة » فإنما تصدر عنها الألفة والإيناس والراحة والإراحة للمرأة والرجل على حد سواء ، فيكون كل واحد منهما بيتاً يأوي إليه الآخر ، ويجد فيه الجمال والمتعة والطعام واللباس والحاجات الأخرى التي هو بحاجة إليها .

كذلك فإن قوله تعالى : ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ يعني أنه سبحانه صيّر المودّة وأوجدها فصارت موجودة بالفعل ، منذ حدوث العلاقة الزوجيّة ، فهي قائمة في النفس البشريّة ، تتحرك بتلقائيّة الجَعل الإلهي ،

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٩/٣

(٢) سورة الروم : الآية « ٢١ »

وقد يشاهدها المرء بنفسه ، ويحسّها في حركته تجاه الزوج ، فعنها تصدر المحبّة ، ومنها تنبعث الروابط الروحيّة الأخرى ، كالرأفة والود ، فيحس المرء أن الزوج منه تماماً ، وهذا دليل قوله ﷺ : « النساء شقائق الرجال »[١]

في المعاني :

جعل « كل شيء في القرآن جعل فهو بمعنى خلق »[٢] .

ومن هنا فإن كل زوج خلقت معه وجبلت المودّة والرحمة ، ولا يظهر فعلهما الروحي فيه ، إلا على قدر مايحمل من إيمان بالخالق ، وثقة ويقين بالغاية الزوجيّة التي فطر عليها الخلق ، وتطبيق الآداب الزوجيّة التي تؤدي غايتها وهدفها في بقاء الحياة رحبة سعيدة .

وأما الودّ : فهو تمني كل واحد للآخر ، وهو أشبه بالرابط الغيبي الذي يمسك طرفي الزوجين ويحكم تواصل قلبيهما بالزواج ، ويعمرهما بالحب وشدّة الشوق والرأفة والشفقة . حتى يصبح كل واحد منهما كأنه الآخر ، إلى أن تتوحد الأرواح في سبحات الخالق تعالى[٣] .

والرحمة : هي حالة وجدانيّة تعرض غالباً لمن به رقة القلب ، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان[٤] .

فهي اتصال الأرواح في مسالك المحبّة القائمة في التكوين الفطري للإنسان الزوج ، وهي « إرادة اتصال الخير » ودوامه وطلب الراحة المستمرة فيه[٥] .

---

(١) الحديث في الجامع الصغير ١/٣٤٤ رقم ٢٥٦٠ .

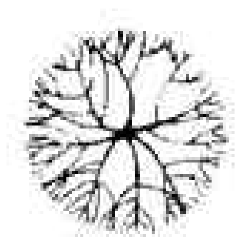
(٢) كليات أبي البقاء ٢/١٣٥

(٣) نفسه ٥/٤٦

(٤) نفسه ٢ / ٣٧٧

(٥) التعريفات للجرجاني ص ١١٥

وهنا نرى أن استمرار الحياة الزوجية الناجحة ، هي ماينشده الزوجان العاقلان اللذان يقيمانها على ثوابت بينة واضحة المعالم ، ظاهرة الدلائل ، فهي تشريع إلهي وسنة نبويّة شريفة ، طريقها نيّر معلوم ، لا يحتاج إلى غوص وراء المعميات العصريّة التي أباحت المحرمات ، وحرمت المحللات ، وابتعدت عن كل القيم التي دعا إليها الإسلام ، وأقامها على الأخلاق السامية العظيمة التي أصبحت هدفاً للصهاينة والمحتلين الذين قالوا صراحة : يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان ، فتسهل سيطرتنا . إن « فرويد » نحن اليهود منا . . . وسيظل يعرض العلاقات الجنسيّة في ضوء الشمس لكي لايبقى شيء مقدس ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسيّة ، وعندئذ تنهد الأخلاق[1] .



---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون .

الحرث والزرع

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾

هذا قوله تعالى في المعنى الحياتي والوظيفي للمرأة ، حيث هي الكسب والمكسب وهي الأرض التي تحتاج الرعاية والسقاية والتربية والزرع ، وفي اللغة :

الحرث : الكسب ، كالاحتراث ، وفي الحديث « أ صدق الأسماء الحارث » ، لأن الحارث هو الكاسب ، والإنسان لايخلو من الكسب طبعاً واختياراً[1] .

والحرث « النكاح بالمبالغة » ونصّ ابن الأعرابي : الجماع الكثير ، وقد حرثها إذ جامعها جاهداً مبالغاً

وأنشد المبرّد :

إذا أكل الجراد حروث قوم ... فحرثي همّه أكل الجرادِ

والحرث ، والحراثة : العمل في الأرض ، زرعاً كان أو غرساً ، ففي الحديث « احرثوا فإن الحرث مبارك ، وأكثروا فيه من الجماجم .

وبه فسر الزجّاج قوله تعالى ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾[3] .

وفي التهذيب : « الحرث : قذفك الحب في الأرض للازدراع .

---

(١) تاج العروس « حرث » ص ٢١٤ ـ ٢١٥ الجزء الخامس .

(٢) نفسه .

(٣) مختار الصحاح « ١٢٨ » حرث ـ الآية من سورة آل عمران : الآية « ١١٧ »

والحرّاث : الزراع . ويقول تعالى : ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ كسبها[1] .

ومن هذا المعنى يظهر القصد أن اللّقاء بين كسب وكاسب ، فهما أرض وبذرة ، ولقاء بين طيبين متساويين في الطيبة ، فلا أرض بلا بذرة ، ولا بذرة بلا أرض لأن البذرة لاتنمو في الهباء ، ولاالأرض تنتج من لاشيء .

وهذا يقتضي الصلاح الزوجي في كل منهما ، في المعاني الحياتية ، والخلقيّة والدينيّة والتربويّة القائمة على الحق والواجب والاستيعاب الكامل لحال كل منهما ، في متاعبه ومشاغله ، وحاجاته ومعاناته .

وعلى الزوج هنا أن يكون مثلما تكون الزوجة مبعثاً للسرور ، ونداء روحياً يدفع بالعودة إلى الآخر حيث الحضن الدافىء ، والحنان المتدفق ، وعلى تعامل الزوجة والزوج تتوقف السعادة الزوجية ، فإذا أعطته الزوجة الراحة النفسيّة المليئة بفيض الرحمة كانت للزوج جاذباً إلى بيته كلما سنح الفراغ ، وما الخصومة وكثرة الشجار ، وقلة الاحترام ، وتجاوز حدود اللباقة والأدب من الطرفين إلا وسائل تنفير قد تودي ببناء الحياة الزوجية ، وتهديم لأركان البيت .

والزوجية تقوم على الاختيار المطلق ، والرضى المطلق ، لا قسراً ولا كرهاً . يقول ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه »[2] .

وفي المرأة قال : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة . . . . »

فطيب الأرض إذاً ليس شكلها ، بل استواؤها وخصوبتها ونوعها وأصلها ، وماتحمله من خصائص قابلة للتعايش مع المناخ العام ، كما هو طيب المرأة استقامتها ووفاؤها ، رقتها له ورأفتها به ، حواره في أدب

(١) سورة الشورى : الآية « ٢٥ »

(٢) الحديث راجع صحيح مسلم ٢/١٠٩٠ رقمه ١٤٦٧

ومطالبته في لين ، حتى تشمله كَلاً ، وتعطيه كلاً ، ليكون لها كلاً فترويح النفس وإيناسها بالمجالسه ، والنظر والملاعبة ، إراحة للقلب وتقوية على العبادة ، فإن النفس ملول ، وهي عن الحق نفور ، لأنه على خلاف طبعها فلو كلفت المداومة بالإكراه على مايخالفها جمحت وثابت ، وإذا روّحت باللّذات في بعض الأحيان قويت ونشطت[1] .

وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة مايزيل الكرب ، ويروّح القلب ، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ليسكن إليها ﴾[2] .

قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه : روّحوا القلوب ساعة ، فإنها إذا أكرهت عميت » وفي رواية » « روّحوا قلوبكم ساعة وساعة فإنها إذا كلّت عميت »[3] وقالت عائشة رضي الله عنها تعلم النساء قيمة الرجال ، وتدلّهن على الواجب عليهن « يامعشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن ، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي الرجل بحرّ وجهها »[4] .

وقال ﷺ : « أربعة من النّساء في الجنة ، وأربعة في النار ، وذكرهن الأربعـة اللواتي في الجنـة» امرأة عفيفـة طائعـة لله ولزوجهـا، ولودا، صـابرة قانعـة باليسير مع زوجها ، ذات حياء ، إن غاب عنها زوجها حفظت نفسها وماله ، وإن حضر أمسكت لسانها عنه ، وامرأة مات عنها زوجها ولها أولاد صغار ، فحبست نفسها على أولادها وربتهم وأحسنت إليهم ، ولم تتزوّج خشية أن يضيعوا .

وأما الأربعة اللواتي في النار ، فامرأة بذيئة اللسان على زوجها ، إن غاب عنها لم تصن نفسها ، وإن حضر آذته بلسانها ، وامرأة تكلف زوجها

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي .

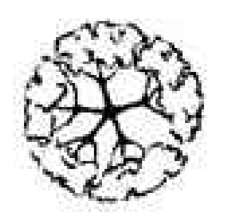
(٢) الآية ٨٩ من سورة الأعراف .

(٣) عن الغزالي - والعقد الفريد .

(٤) كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي ٩٠٩ - ٩٧٤ هو في ص ٤٢/٢

مالايطيق ، وامرأة لاتستر نفسها عن الرجال ، وتخرج من بيتها متبرجة ، وامرأة ليس لها هم إلّا الأكل والشرب والنوم ، وليس لها رغبة في صلاة ، ولا في طاعة لله ، ولا طاعة لرسول الله ، ولا في طاعة زوجها »[1] .

فإذا عرفت أيها الأخت ذلك استقامت حياتك ، وأنشأت أولادك خير النشأة وكانوا لك قرة عين ، ولزوجك الحرث والطمأنينة والسكينة ، وعلى الزوج أنه لم يؤت السلطة عليك ، بل العدل والوفاء والإيمان والنعمة . فهو الحاضن لك ولأولادك ، وأنت الحاضنة له ولأولادك . فأحسني الحضن والاحتضان . واحمدي الله وعليه توكلي ومنه ارتجي الخير .



(١) السابق ص ٤٨

مايكره الرجل في المرأة

تسود عصرنا الحالي مقولة تردّدها النساء وهي « الطريق إلى قلب الرجل معدته » وذلك هو الجهل ذاته ، إذ لو كان الأمر كذلك لما حصلت خلافات ، ولما وقع طلاق وفراق ، والحقيقة ياسيدتي هي ماقاله رسول الله ﷺ « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله ، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها »[1] .

ونظرة السرور ابتسامة وإقبال ، إشراقة وإصغاء ، سلامة في النيّة والطباع ، حلاوة في الرائحة واللسان ، والرقة في المعاشرة ، الصدق في الجنان ، والعفة في كل شيء . وقد قال بعض العرب :[2] لا تنكحوا من النساء ستّة : لا أنّانة ، ولا منّانة ، ولا حنّانة ، ولا تنكحوا حدّاقة ، ولا برّاقة ، ولا شدّاقة .

أماالأنّانة فهي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة ، فنكاح الممراضة أو نكاح المتمارضة لا خير فيه .

والمنّانة : التي تمن على زوجها فتقول : فعلت لأجلك كذا وكذا .

والحنّانة : التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر ، وهذا أيضاً مايجب اجتنابه .

---

(١) اخرجه النسائي ومسلم في كتاب الرضاع بلفظ « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ٢/١٠٩٠ رقمه ١٤٦٧ والجامع الصغير ١/٥٧٦ رقم ٤٣٧٩ بلفظ « الدنيا كلها » .

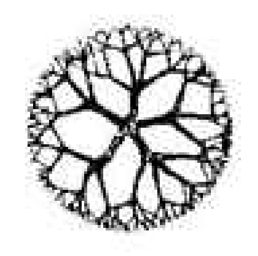
(٢) راجع أحياء علوم الدين للغزالي ٢/٣٨ .

والحَدَّاقة : التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه .

والبرّاقة : تحتمل معنيين : أحدهما أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصّنع ، والثاني أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء ، وهذه لغة يمانية ، يقولون : برقت المرأة وبرق الصّبيّ الطعام إذا غضب عنده .

والشدّاقة : المتشدقة الكثيرة الكلام ، ومنه قوله ﷺ « إن الله تعالى يبغض الثرثارين والمتشدقين »[1] .

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء . « البخل ، والزّهو ، والجبن » فإن المرأة إن كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها ، وإن كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لينّ مريب ، وإن كانت جبانة فَرَقَت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتّقت مواضع التهمة خيفة من زوجها فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح[2] .



---

(١) رواه الترمذي : سنن الترمذي ٤/٣٧٠ رقمه ٢٠١٨

(٢) إحياء علوم الدين السابق .

الزوجة في القرآن الكريم

وخير طريق للمرأة قيماً وأخلاقاً أن تأخذ بالأوصاف الأخلاقيّة الموجودة في القرآن الكريم ، إن لم تدرك الجمال في الخلق والهيئة ، لأنها لم تختر لون بشرتها ، ولا لون عينيها ولا طولها ولا اسمها ، ولكن الأخلاق اختيار ومسلك ، وعقيدة وتطبيق .

وهذه الأوصاف الجمالية في القرآن هي المحببّة للرجال جميعاً ، ولذلك وصفهن الله تعالى في القرآن ووعد بهن المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ إنّ للمتّقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ﴾[1] .

وهي صفة خاصة بالنساء لا يتصف بها الرجال . وهي استدارة الثديين ، وذلك مايحبّه الرجل ، وفي هذا رفعة قدر للرجل في مراعاة ذوقه ومايشتهي ، ورفعة قدر المرأة التي تغني زوجها عن كل النساء .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكارا ، عُرباً أترابا ﴾[2] وهن المتحببات لأزواجهن الملاطفات المطيعات ، المهنئات أزواجهن في الجماع ، والحسنات التبعّل :

قال لبيد :

وفي الخدوج غروب غير فاحشة ربّما الروادف يغشى دونها البصرُ

٣ ـ وقال تعالى :﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأيّ آلاءِ ربكما تكذّبان ﴾[3] وهن القاصرات الطرف على الأزواج ، يعطينهم حسنهن وجمالهن وأجسادهن فلا ينظرون إلى غيرهن .

---

(١) سورة النبأ : الآيتان « ٣١ ـ ٣٢ » .

(٢) سورة الواقعة : الآيات « ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ » .

(٠) ديوان لبيد .

(٣) سورة الرحمن : الآيات « ٥٥ ـ ٥٨ » .

وقال تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾[1] فهن خيرات في الأخلاق والمعاشرة والطهارة والوجوه والملبس والمطعم .

وقال تعالى : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾[2] لا ينظرن إلى غير أزواجهن وهذه الصفة قصرهن عن التبرج والبروز والظهور للرجال من غير أزواجهن(*) .

وقال تعالى : ﴿ إن المتقين في مقام أمين في جنّان وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوّجناهم . بحور عين ﴾[3] ، وهن اللواتي تحار العيون بهن لحسنهن وجمال عيونهن لصفاء البياض وشدة السواد ، والتكحل .

وقال تعالى : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون ﴾[5]

وقال تعالى : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾[6]

وقال تعالى ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات ، مؤمنات قانتاتٍ ، تائباتٍ ، عابداتٍ سائحـاتٍ ثيّبات وأبكارا ﴾[7]

وقال تعالى : ﴿ إن المسلين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ،

---

(١) سورة الرحمن : الآية « ٧٠ »

(٢) سورة الرحمن : الآية « ٧١ »

(*) حادي الأرواح لابن القيم ٢٥٣/١ وما بعدها .

(٣) سورة الدخان : الآيات « ٥١ - ٥٤ »

(٤) سورة الصافات : الآية « ٤٨ »

(٥) سورة البقرة : الآية « ٢٥ »

(٦) سورة النساء : الآية « ٣٣ »

(٧) سورة التحريم : الآية « ٥ »

والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ ياأيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهنّ ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهنّ إن الله غفور رحيم ﴾[2]

في هذه الأوصاف التي وردت في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، تكون المرأة سيّدة بالفعل لا بالقول ، لأن السيّدة من السيادة ، وهي التي سادت كرامتها ونفسها وارتقت بها ، ولا تطلق كلمة السيدة جزافاً على كل متزوّجة ، وإنما على من سمت نفسها عن الدنايا ورذائل الأعمال .

فتعالي ياسيّدتي وأختي المؤمنة نجعل القرآن العظيم دستورنا على قدر مانستطيع وخذي العبرة من قوله تعالى :

﴿ وضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهم فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾[3]

وانظري لمن أنعم الله عليها حين وقعت تحت زوج فاجر كافر :
﴿ وضرب الله مثلاًللذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ﴾[4]

---

(١) سورة الأحزاب : الآية « ٣٥ »
(٢) سورة الممتحنة : الآية « ١٢ »
(٣) سورة التحريم : الآية « ١٠ »
(٤) سورة التحريم : الآية « ١١ »

القيم الجمالية للمرأة في الحديث الشريف

قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن مأدُبَةُ الله فخذوا منه[1] ، ففيه العلم والأدب والحياة .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّةً حتى يرى مُخّها، وذلك بأن الله يقول ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ فأما الياقوت فإنه حَجرٌ لو أدخلت فيه سلكاً ثم استطفيتهُ لأريتهُ من ورائه » .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن أوّل زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض لكل امرىء منهم زوجتان ، كل واحدة منها يرى مخّ ساقها من وراء لحمها من الحسن يسبحون الله بكرة وعشيا لا يسقمون ، ولا يتمخطون ولا يبصقون ، آنيتهم الذهب والفضة ، وأمشاطهم الذهب وقود مجامرهم الألوة ـ قال أبو اليمان : يعني العود ـ ورشحهم المسك[3] ، ذلك مما للمرأة عندالرجل ، وماها في نفسه وحياته .

لعلنا نلحظ في حياتنا اليوميّة أن جلائل الأعمال الفاضلة ليست كدنيّاتها منزلة ، وليس العالم كالجاهل ، ولا النور كالظلمات ، ولا العامل كالقاعد الكسول ، ولا المصلح كالمفسد ، ولا الهدى كالضلال ، لأن

---

(١) رواية الجامع الصغير ١/٣٣٩ رقمه ٢٥١٣ .
(٢) صحيح البخاري رقم /٣٠٧٣/
(٣) نفسه ٣/١١٨٦ رقمه /٣٠٧٤/

الأولَيات عاليات في درجاتها ، راقيات في أفلاكها ، مشرقات في عطاءاتها ، وأما الأخريات فأدنى . والمرء بطبعه وفطرته يحب الارتقاء ويرغب العلى ، ومن أجل العلا .

وأشار الرسول الكريم ﷺ ، إلى أن الإنسان فيما آتاه الله يرغب رغبة جليلة في أن يتمتع بسمعه وبصره وذوقه وأحاسيسه وقدراتها الأخرى ، واختصاراً لمجموع آليات التمتع وفعالياتها قال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة »[1] لأنّ المرأة الصالحة منحة الرضى من الله تعالى ، وفضل من أفضاله ، ففيها طمأنينة الزوج على نفسه وولده وماله وعرضه ، وفيها صيانة للاسم الذي تحمله المرأة الصالحة التي قال عنها ﷺ : « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله »[2] . والحفظ هنا : حفظ للودّ وعقدة النكاح وحفظ للحب الذي عاهدت عليه الله ورسوله ، والأمانة التي ائتمنت عليها ، فاستوجبت منها الحفظ والصون ، امتثالاً لأوامر الله سبحانه ونواهيه .

وكان رقيبها ضميرها ومخافة الله ، ومحبّة الفوز عنده بالجنة والرضوان ، فأخلصت النيّة ، وصدقت العهد الذي عاهدت عليه ربّها ونبيّها محمد ﷺ .

وإذا كانت نساء الجنة قد وصفت في القرآن الكريم ، فإنّ هذا الوصف إشارة إلى نساء الحياة الدنيا للتشبه بهن عفافاً وصلاحاً وأخلاقاً وطهارة ومعاملة وإيماناً وحكمة ، قال تعالى ﴿ خيرات حسان ﴾ والخيرات هن حسنات الأخلاق لأنها عون على الدين ، حسنات المعاملة لأنهن عون

---

(١) مرّ الحديث .

(٢) مرّ الحديث . وفي الجامع الصغير ١/٥٥٣ رقم ٤٠٩٢ بلفظ « خير نسائكم الولود ، الودود ، المواسية ، المواتية ، إذا اتقين الله . وشرّ نسائكم المتبرجات ، المتخيلات ، وهن المنافقات . لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم .

على الحياة وتعويض عن كل نقص مادّي ، جابرات لخواطر الرجال وعثراتهم ، متحملات ما يعترضهم في حياتهم ، يقفن إلى جانبهم مهما اشتدت الأحوال ومهما ضاقت سبل العيش .

وهنّ أيضاً ﴿ قاصرات الطرف ﴾ فلا يمددن بصرهنّ إلى غير أزواجهنّ ، ولا ينظرن إلى الآخرين غير ما أوتين من مال وطعام وشراب ولباس ، تخلصن من الحسد والغيرة مما يمتلك الآخرون . فلا ينافس إلاّ في علم وعبادة وتربية ، ولا يملن إلى غواية أو هوى ، ولا يتباهين بملبس أو مأكل أو مشرب ، ولا يتفاخر ن بفرش أو أثاث إلا بما ملكت أيمانهنّ ومايسّرته لهن الأحوال .

يقول ﷺ : « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك »[1] ، وهنا نري القيم المفضلة عند الإنسان الذي يطمع « المال » . ولكن هل المال هو المفضل للأنه ورد في الحديث أولاً ؟ قطعاً لا . لأنه لا ينبغي أن ينكح طمعاً في المال وقد قال سفيان الثوري : إذا تزوج وقال : أي شيء للمرأة ؟ فاعلم أنه لصّ . وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدي ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه ، وكذلك إذا أهدوا إليه فنيّة طلب الزيادة نيّة فاسدة ، فأما التهادي فمستحب وهو سبب المودّة[2] . قال ﷺ : « تهادوا تحابوا »[3] .

ولذلك نرى رسول الله ﷺ يحسم الأمور ويضع الدلائل للتناول من مضامينها وفي كمال صلاحها فيقول : « إن أعظم الناس بركة أصبحهنّ وجوهاً وأقلهن مهراً »[4] وقال ﷺ : « من بركة المرأة سرعة تزويجها ، وسرعة رحمها ـ أي الولادة ـ ويسر مهرها »[5] وأما الجمال فمستحب ،

---

(1) رواه البخاري ١٩٥٨/٥ رقم /٤٨٠٢/ ومسلم ١٠٨٦/٢ رقم ١٤٦٦

(2) سفيان الثوري : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ ـ ١٦١هـ = ٧٧٨م) .

(3) رواية الجامع الصغير للسيوطي ٤٥٤/١ رقم ٣٣٧٣ ومابعده أحاديث عن التهادي .

والنفس تهفو لذات الجمال لأنها ترغبه وتلك فطرة في الإنسان لا يستطيع دفعها ولا نكرانها وخاصة في المرأة التي قال عنها تعالى ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قيل هي المرأة ، ولذلك يرغب الرجل في التزوّج بامرأة جميلة ، تريح النفس إن قامت ، وتجذبها إذا قعدت ، تناديها إذا شردت ، تقر بها وإن ابتعدت في مسافات الحياة وهموم الحاجة ، تلين قسوتها ، وتقوي عبادتها كلما حاولت المغريات شدّها إلى الطرف الآخر . والوجه الجميل البهيّ الطلعة ، الحلو الإشراقة ، به يحصل التحصّن ، ويتعمق العفاف ، وتصبح النساء أخوات لا تثير شهوة ولا تدفع غريزة .

ولكن الجمال بلا دين وأخلاق ، إن هو إلا بريق زائف ، أو مسحوق مؤقت تمحي آثاره بأقلّ عوامل الطبيعة شأناً ، لأن الجمال إذا لم يكن محصّناً بالأخلاق والقيم ، بالدين بالعطف والرأفة ، والصبر على المكروه ، والاكتفاء بالحلال ، فلا قيمة ولا معنى ، ولا يمكن أن يأخذ مكانه من قلب الرجل ، وإن أخذ ، فإنما هو أخذ العابر الذي يترك المكان فور انتهاء الحاجة .

إذا فالمطلوب أن تجمع الحُسْنَيَين « الجمال والدين » فإن لم يكن ، فالدين . لأن الدين فيه مايعوّض المرأة عن جمال ومال ، ويعوّضها عن الشكليّات الأخرى ، فقد تكون خفّة دمها كما يقال ، وحلاوة روحها ومنطقها ، وسلامة تفكيرها ، وإخلاصها لبيتها وأولادها ، ورعايتها لزوجها ، مغنية لها عن حسن الوجه واحورار العينين ، ورشاقة القد وطول القوام . وقد تغني بحسن عشرتها لزوجها عن نساء الدنيا .

والجمال المغري يدفع بالدين ، وأما الجمال المغرور فقد يقع في الخطأ ، ويوقع غيره فيه ، وصحيح أنّ الاستمتاع بالجمال ألذّ واطعم ، ولكن الجمال إذا لم يكن للرجل وحده في كل شيء ، فإنما هو ناقص ، وهو أشبه مايكون بعارية تتناهبها العيون فيصبح الرجل بالنسبة لها واحداً من النظّار ، وتصبح هي بالنسبة للرّجل امرأة يعرفها بعمق .

والجمال إذاً هو الجمال الملتزم بالحياة الزوجية المثلى ، المحافظة على منطق الحياة وعلمها ، في المرأة الموصوفة في القرآن الكريم ﴿ عرباً أتراباً ﴾[1] . فالعروب هي العاشقة لزوجها ، المشتهية للوقاع ، وبه تتم اللذّة[2] . وهي التي قال عنها رسول الله ﷺ « خير النساء أحسنهنّ وجوهاً وأرخصهن مهوراً »[3] على أن يكون حسن الوجه حسناً في الالتزام بالحياة الزوجيّة يملؤها حبّاً ورحمة ، وأنساً ورأفة ، وتحصناً وتقى ، ورضى وقناعة . وهي التي قال عنها ﷺ « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله »[4] و « إنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج »[4] .

ولعلّ الجمالية في المرأة لا تكتمل بخلق ولا بدين مالم تكن نظيفة طاهرة ، لأن الطهارة ركن مكين في حياتنا الإسلاميّة ، ولعل الطهارة تشمل كل المسلمين رجالاً ونساءً ، يقول تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ وقد أشارت إلى الطهارة آيات كثيرة مبثوثة في أنوار صفحات القرآن الكريم .

والأمر سهل بسيط ممكن لا يحتاج إلى عناء ، يقول ﷺ « الطّهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن « أو تملأ » مابين السماوات والأرض . والصلاة نور . والصدقة برهان . والصبر ضياء . والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو . مبايع نفسه . فمعتقها أو موبقها »[5] .

والطّهور : يقال الوضوء . والطهور بضم أولها إذا أريد به الفعل الذي

---

(١) سورة الواقعة : الآية « ٣٧ »
(٢) احياء علوم الدين للغزالي ٣٩/٢
(٣) رواه ابن حبان من حديث ابن عباس وروى أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين .
(٤) نفسه الإحياء وقد مرّ الحديث .
(٥) صحيح مسلم ٢٠٣/١ كتاب الطهارة . الحديث رقم /٢٢٣/

هو المصدر ، والطّهور بفتح أولها . إذا أريد به الماء الذي يتطهر به .

وإذا كان الشطر : يعني النصف . فإننا نجد القيمة الكبرى للطهور والطهارة في تخليص البدن من النجاسة وغيرها مغلظة كانت أم مخفّفة .

والطهارة شاملة كاملة ، فهي طهارة للنفس والبدن والثياب ، لكي يتكامل في التربية الشكل والمضمون ، تتميماً لما أراده الخالق في المخلوق الذي كرّمه فقال : ﴿ ولقد كرّمنا بني ادم ﴾ وهذا التكريم شامل لكل العناصر الحسيّة والحركيّة والإراديّة وغير الإراديّة ، وكل واحدة من هذه العناصر تتصل بغيرها اتصالاً معنوياً يكمل ذاتيّة الإنسان ، فيعطيه قيمة وشعوراً يختلف عما لو كان الإنسان غير طاهر ، أو غير نظيف .

والطهارة بوصفها شطر الإيمان ، هي الشطر المادّي الذي يتعامل مع الشطر الآخر « الروحي » الإيماني الذي يتصل بالخالق ، ومادام الإنسان هو الوعاء الذي يتسع لذكر الله سبحانه وهو الدائم الذكر له ، فإنه لا يحل دكر الله ولا يستجيب إلاّ لطاهر .

فالرّب في الأصل من حيث هي كلمة : مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً »[1] .

والطهارة المشتركة بين الرجل والمرأة أوضحها النبي ﷺ في قوله عن عائشة رضي الله عنها « عشر من الفطرة[2] : قص الشارب وإعفاء اللحية ـ للرجل ـ والسواك ـ مشترك بينهما ـ واستنشاق الماء ـ مشترك بينهما ويعني تنظيف الأنف ـ وقص الأظفار ـ مشترك ـ وغسل البراجم ـ مشترك ـ ونتف الإبط ، وحلق العانه وانتقاص الماء »[3] مشترك .

---

(١) ناصر الدين البيضاوي المتوفى سنة / ٧٩١ هجرية / أنوار التنزيل وأسرار التأويل : تفسير البيضاوي طبعة الحلبي بالقاهرة سنة الطبع ١٣٥٨ هجرية ١٩٣٩ م الجزء الاول ص ٥

(٢) صحيح مسلم ١/٢٢٣ رقمه ٢٦١

(٣) انتقاص الماء : يعني الاستنجاء ـ عن صحيح مسلم « زاد قتيبة : قال وكيع : انتقاص الماء يعني الاستنجاء .

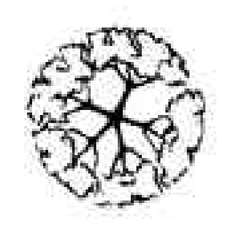
ولا نريد هنا أن نتحدث عن الحيض ووجوب الطهارة منه وكذلك الجنابة فإنها معروفة لدى الجميع ، ولكننا نتحدث عن النظافة مطلقاً ، وخاصة بالنسبة للمتزوجين والمتزوّجات لأن الطيب يجلب المسرّة ، ويقرّب القلوب ، ولذلك يقول ﷺ : « حبب إليّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[1] .

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ، وأم سليم تنظر إلى امرأة فقال : « شمّي عوارضها وانظري إلى عقبها »[2] .

وربما كانت تلك من عادات العرب القديمة التي اتبعت في الخطبة وغيرها ، فقد نعثر على معرفة ذلك في المرأة ، فنجد النابغة الذبياني يشير إلى هذا المعنى فيقول :

ليست من السود أعقاباً إذا انصرفت ولا تبيع بجنبى نخلة البُرَ ما

وقال الأصمعي : إذا اسودّ عقب المرأة اسود سائرها[3] .



(١) الجامع الصغير ١/٤٩٩ رقم ٣٦٦٩

(٢) عن عيون الأخبار لابن قتيبة ١٠/٨ .

(٣) نفسه وقد مر وكررناه للتذكير به والفائدة .

احترام الرابط الزوجي :

إن الاحترام بين الزوجين مطلوبة لقيام الحياة الزوجيّة وكل علاقة لا أدب فيها ولا تأدّب إنما هي وعاء أجوف خال من المحتوى ، وإن فقدان الاحترام يفقد الزواج قيمته الكبرى ، وينزله من قدسيته التي وضعها الله في بركة الزوجيّة القائمة على هدي رسول الله ﷺ .

وإن الكثيرات من نساء العصر افتقدت أدب الحوار مع زوجها ، وأدب التعامل واللغة ، فهي تمتنع عن فراش زوجها ، وكأن الزوج يخضع لمزاج الزوجة ورغبتها ، وتعامله معاملة النّد للنّد متجاهلة الواجب الزوجي الذي يحصّن الإنسان من الموبقات ، وينشيء العفة أو يساعد على بقائها ، وكل هذا تحت دعوى الحضارة ، أو المساواة بين المرأة والرجل ، أو حريّة المرأة وهي في هذه الحالة أبعد ماتكون عن معطيات الحضارة ، وأجهل ماتكون بالحريّة ، ولا تعلم هي أنها قد تدفع زوجها إلى ارتكاب الآثام ، ولحاق المحرمات ، خاصة إذا كان من ذوي النفوس الضعيفة .

وإن الكثيرين من الرجال يعاملون المرأة على أنها خادمة خلقت للطاعة فقط ، عليها أن تعمل بصمت طبخاً وغسلاً ، قياماً على الحاجة والمتعة ، دون أن يراعي فيها الإنسانية التي هي صفتها الأساسية ، كل ذلك وربما يعاملها بقسوة وعنف ، بدعوى أن الرجل وخاصة الشرقي يحق له مالايحق للمرأة ، وبسبب فهمه الخاطىء لأصول التعامل الزوجي وهو أجهل مايكون لمفهوم « قوامة الرجل على المرأة في الآية ﴿ الرجال قوامون على النساء بالقسط ﴾(١) .

وهنا لا بد من فهم واع لحقيقة التعامل وما يقوم عليه ، وأول شروطه تصحيح المفاهيم ووضعها في حدود الاعتدال بمعنى صون الحقوق للزوجين ، فكل يصون الآخر ، فلا افراط ولا تفريط ، ولا إسراف ولا تضييق .

---

(١) سورة النساء الآية «٣٤» .

وقد ورد في الأثر أن رسول الله ﷺ « آخى بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما . فجاءه سلمان يزوره ، فإذا أم الدرداء متبذّلة - لابسة ثياب المهنة - فقال : ماشأنك ياأم الدرداء ؟ قالت : إنّ أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار وليس له في شيء من الدنيا حاجة .

فجاء أبو الدرداء ، فرحّب به ، وقرب إليه طعاماً ، فقال له سلمان : أطعم . قال : إني صائم . قال : أقسمت عليك لتفطرنّ ، ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل معه ، ثم بات عنده ، فلما كان الليل أراد أبو الدرداء أن يقوم ، فمنعه سلمان وقال : ياأبا الدرداء إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، صم وأفطر ، وصلّ ، وأت أهلك ، وأعط كل ذي حق حقه ، فلما كان في وجه الصبح ، قال : قم الآن إن شئت . فقام فتوضأ ثم ركعا ثم خرجا إلى الصلاة فدنا أبو الدرداء ليخبر رسول الله ﷺ بالذي أمره سلمان فقال له رسول الله ﷺ : « ياأبا الدرداء ، إن لجسدك عليك حقاً ، مثل ماقال سلمان ، « وفي رواية : صدق سلمان »[(1)] .

فاحترام المشاعر الزوجيّة ، والمحافظة على الكرامة ، في النفس والمأكل والمشرب والملبس والمنطق والنوم وعموم مناشط الحياة وحركة الإنسان فيها ، إنما هو صيانة للرابط السكني ، وحفاظ على الودّ والتواصل ، وتأكيد على فعل الرحمة ، مما يجعل الحياة الزوجيّة أوثق وأنجح ماتكون ، قال رسول الله ﷺ : « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته » فانظر يا أخي المسلم كيف جمع بين المرأة وبين الذكر والشكر[(2)] ، وانظر أيّة معاملة يجب أن تعامل هذه المرأة التي هي أنس وراحة وسكن ورحمة ، وقد قال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ قال : المرأة الصالحة . ويجب أن نعلم أن الزوج يسهم بقدر كبير في صلاح المرأة وإصلاحها ، كما تسهم المرأة في

(1) رواه البخاري ١ رقم ١١٠٢ والترمذي .
(2) راجع احياء علوم الدين للغزالي ٣١/٢ وما بعدها .

صلاح الرجل وإصلاحه .

ولكن نساء اليوم يتشبهن بنساء الجاهلية في أكثر البيوت ، فقد كان العرب القدامى حين تتزوج منهم فتاة توصيها أمها بوصايا ، وقد كانت « نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الزوج وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبري زوجك قبل الإقدام والجراءة عليه :

انزعي زجَّ[1] رمحه ، فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسّري العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلي الإكاف[2] على ظهره وامتطيه ؛ فإنما هو حمارك .

إن خير الأزواج من عرفت دينها والتزمت واجباتها وعرفت مالها وما عليها . وقد كان يقال : أربع يسوّدن العبد . أي يجعلنه سيداً وهي : الأدب ، والصدق ، والعفّة ، والأمانة

وقد قال بعض الشعراء في النبي ﷺ :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر[3]

---

(١) الزج رأس الرمح .

(٢) البرذعه ونحوها مما يركب فوق على الحمار .

(٣) عيون الأخبار المجلد الأول ١/٢٢٤

حبّ المرأة لزوجها وبيتها

وقال تعالى : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾[1] صدق الله العظيم فيما منح ، وصدق سبحانه فيما وجّه به وأرشد ، وتعالى الله عما يصفون .

وهذه الآية ترشدنا إلى معاني كثيرة وقيما جمّة ، يمكن للمرء أن يقف عندها بالتدّبر ، ليرى أن هذه الحور المقصورات في الخيام هي في الجنة ، والجنة طاهرة مطهرة من كل إثم وفسق وفجور وفاحشة ، فلماذا مقصورات في الخيام ؟ ويأتي الجواب مفحماً يدحض كل ريب ، إنهن ممنوعات من التبرّج « تبرج الجاهليّة » وليس لهن أن يتبذّلن لغير أزواجهن ، بل قصرن حياتهن ، وذلك بالخلق والفطرة والقناعة والأمر الإلهي ، وكان قصر الحياة على الأزواج وحسب ، فلا يخرجن من منازلهن ، واكتفين بأزواجهن متعة وخيراً ، فلا يردْنَ سواهم . ولا يتجولن في الأسواق وأماكن اللهو والترف كما نرى النساء الآن ، ولا يختلطن الاختلاط الآثم ، ولا يثرن غرائز غير رجالهن ، ولا يعتدين على عفاف مخلوق فيما يظهرن من المفاتن . وصف سبحانه وتعالى حياتهن ورجالهن فقال تعالى : ﴿ إنّ أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ، ولهم مايدّعون ،سلام قولاً من رب رحيم ﴾[2] .

ولذلك يقول ﷺ : « عليكم بالودود الولود »[3] .

وهنا نرى في الآية ﴿ هم وأزواجهم ﴾ فيها تكتمل الحياة وتغني عن

---

(١) سورة الرحمن : الآية « ٧١ »

(٢) سورة ياسين : الآية

(٣) الحديث رواه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار بلفظ « تزوجوا الودود الولود » .

الآخرين إلاّ ما تقتضيه صلة الرحم ، والصحبة والصداقة وغيرها . ولكن هنا إشارة إلى الاكتفاء بالحلال ، والاستغناء به عن كل ماهو للغير وفي يد الغير . وهو ليس انقطاعاً عن الآخرين ، ولكن يريد أن الحلال القليل يغني عن غيره كله .

وهذه الودود المتشبهه بنساء الجنة ، إنما هي تحب زوجها الحبّ كله ، فهي تألفه ويألفها ، تكفيه ويكفيها مما أعطاه الله ، لم تختبر غير زوجها من الرجال ، ولم يطّلع عليها غيره ، ولن تفرّط بشيء من روحها وجسدها وسمعها وبصرها ونفسها ، بل أعطت الزوج بالكليّة ، مما تجعله لا يحب مفارقتها ، وحين يخرج للعمل يحس بداخله جاذباً خفياً يشده إلى البيت ، حيث كانت له مسكناً ، فشملته بالمودة التي أحاطت به من كل جانب فلم يعد ينشد إلا حبها ، والوفاء لها ، محافظاً عليها أيضاً في غيابها وغيابه عنها ، فيشعر أنه أحوج مايكون في الدنيا إليها . لأن « الودود » رحمة تكمل فراغه النفسي فتملأ قلبه وتعمره بالحب لها .

تعطي الودّ بالابتسامة ، والحركة ، والالتفاتة ، واللسان . وتمنح الرضا إن أصبحت وألقت التحيّة على زوجها في صباح ، فتقبل عليه ، تطهّر نفسه من أغلال الأعباء وتلقي عنها الهموم بكلمة ، أو حديث ، أو حوار هادىء لطيف ، وضحكة خفيفة تلفّه بالأمل وتدفعه إلى العمل ، وإن عاد بعد عمله يلقي بمتاعبه جانباً ، حين تنسيه بترحابها هموم الحاجة ، وتستقبله بالوجه الطلق الذي يفيض رحمة وأنساً وصدقاً . ليتكىء بجانبها وكأنه ملك اكتملت له أركان عرشه .

وإن نامت تكون قد أدت ماعليها ، وأراحته على صدرها بحنان الحبيبة ، تروي ظمأه ، وتسحب منه متاعبه ليسترخي في ظلال عطائها ، ورقة حديثها ، ثم تغفو عيون ملائكة البشر في أفياء الرحمة الربّانية ، والهدي النبوي الشريف الذي أراد للحياة أن تكون عطاءً متبادلاً ينظمه الأنس والرضوان ، فيفتح أمام الزوجين آفاقاً من الهناء والسعادة ، فيشعران أنهما

في جنة الله على أرضه .

والولود : هي ذات الصحة والبنية والشباب ، فهي أقدر على الحب ، وأقوى على العطاء للزوجيّة والوفاء لها ، والطاعة لزوجها . وفي هذا يقول ﷺ : « ألا أخبركم بخير نسائكم في الجنّة ؟ قلنا بلى يارسول الله ، قال : « كل ودود ولود ، إذا غضب زوجها قالت : هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى »[1] .

وأما قضيّة النسب في الحديث الشريف « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك »[2] ، فإن النسب هنا لا لقبيلة ولا لقوم ، ولا لرجال تولوا سلطة دولة أو وزارة أو إمارة وغيرها ، وإنما هي : أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح ، بيت استقامة وعدل وشرف وأدب ، لكي تربي أولادها على ذلك ، كما تربت هي في بيت أبيها ، وخاصة في مسألة تربية البنات ، فإن لم تكن هي مؤدبة عاقلة متدينة خلوقة ، فإنها لن تحسن التربية والتأديب .

هذه خصال مرغوبة في المرأة ، ولكن كثيراً من الناس ، لم يعودوا ، إلى كتاب الله وأحاديث رسوله ولو عادوا لها ، لوجدوا فيضاً من الإرشاد ينبعث نور الحياة بطمأنينتها وخيراتها من بين الحروف والكلمات ، وإنها لنور يتلألأ في الأعلى .. كلما اقتربت منه أكثر ، أعطيت وعرفت الكثير .

وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول : يترك أحدكم أن يتزوّج يتيمة فيؤجر فيها ، وإن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤونة ، ترضى باليسير ، ويتزوج بنت فلان وفلان يعني أبناء الدنيا ، فتشتهي عليه الشهوات وتقول : اكسني كذا وكذا[3] .

---

(١) رواه الطبراني وفي الجامع الصغير ١/٣٨٧ رقم ٢٨٦٧

(٢) الحديث

(٣) احياء علوم الدين للغزالي .

تعليم وتعلّم

إن الأدب مكتسب بالعلم والتعلّم ، ومن حق البنت أن تعلمها أمها كيف تعاشر زوجها فقد روي أن أسماء[1] بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزوج : إنك خرجت من العش الذي فيه درجت ، فصرت إلى فراش لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أرضاً يكن لك سماء ، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً ، وكوني له أمة يكن لك عبداً .

لا تلحفي[2] به فيقلاك[3] ، ولا تباعدي عنه فينساك .

إن دنا منك فاقتربي منه ، وإن نأى فأبعدي عنه .

واحفظي أنفه وسمعه وعينه .

فلا يشمّن منك إلا طيباً ، ولا يسمع إلا حسناً ، ولا ينظر إلاّ جميلاً .

تلك هي المرأة المرشدة العاقلة التي وعت قيمة الزوجيّة ، وعرفت كيف تكون الحياة فإذا صدقت المقولة الشعبيّة « الابن سر أبيه ، والبنت سر أمها » فإن هذه الفتاة ستسعد نفسها وزوجها لأنها عرفت الأصول التي تضمن لها بقاء الحب الزوجي والتعامل في البيت ، مما يجعله ظلالاً هانئة في كل جوانبها ، وهذه التي يصح فيها قول الشاعر :

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وقد كانت التربية البيتية هي المدرسة التي تخرج الأعلام من النساء

---

(١) الاحياء ٢ / ٥٨

(٢) زهر الآداب للقيرواني ٢ /٤٣

(٣) الاحياء ٢ /٥٩

المربيات الفاضلات ، اللواتي حفظت لهن كتب الأدب والتاريخ أفضل السِّير . فقد روي أن الأصمعي قال : دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجهاً ، تحت رجل من أقبح الناس وجهاً ، فقلت لها : ياهذه أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله ؟ فقالت : ياهذا اسكت فقد أسأت في قولك ، لعلّه أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه ، أو لعلي أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي ، أفلا أرضى بما رضي الله لي ؟ فأسكتتني .

وعلى الأبوين أن يلتفتا إلى أدب الحوار بينهما لكي يتطبع الأبناء به ، فيصبح سلوكهم . فليست المسألة طعاماً وشراباً ولباساً ، ولكنها أدب وعلم وحياة ، تبدأ بالتربية والطاعة لله ورسوله ، والحقوق المترتبة الواجبة والمستحقة ، وتنتهي إلى عطاءات تبثها هذه المجموعة من عُلى المكارم . فمّرة عن طريق الطلب ، ومرة عن طريق النهي ، وأخرى بالتوجيه والتعليم والمران والتدريب تستقيم التربية . بدءاً من الطعام والشراب : فعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة ربيب[1] رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصفحة ، فقال الرسول ﷺ « ياغلام سمِّ الله تعالى ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك »[1] .

فما زالت تلك طعمتي .

فالاعتياد على الآداب والأخلاق والعادات الحسنة تبدأ منذ الصغر ولا تنتهي بانتهاء مرحلة زمنيّة من عمر الولد أو البنت ، ولكن لكل مرحلة تربيتها التي تناسبها ، ولهذا نجد الرسول ﷺ يقول « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »[2] .

فهي إذاً تربية سلوك ، وتربية تعليم وتدريب وتدريس ، وتربية صحيّة جسمية عقلية ، وتربية تجربة تغرس في نفوس الأبناء والبنات .

---

(١) رواه البخاري ٢٠٥٦/٥ ومسلم في باب آداب الطعام والشراب وأحكامها رقم ٢٠٢٢

(٢) الجامع الصغير ٤٦٢/٢ رقم /٨١٧٤/

وعلى الأباء والأمهات أن يعلموا أولادهم الأخلاق حتى في حالات الخلاف بين الزوجين وهذا هو تعليم القدوة ، ويمكن للوالدين أن يكونا كذلك في كل شيء .

فقد تنازع أبو الأسود الدؤلي وامرأته إلى زياد في ابنهما ، وأراد أبو الأسود أخذه منها فأبت ، وقالت المرأة :

أصلح الله الأمير . هذا ابني ، كان بطني وعاؤه ، وحجري فناؤه ، وثديي سقاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، فلما استوفى فصاله ، وكملت خصاله ، واستوكمت[٣] أوصاله ، وأمّلت نفعه ، ورجوت عطفه ، أراد أن يأخذه مني كرها ، فآدِني[٤] أيها الأمير فقد أراد قهري ، وحاول قسري .

فقال أبو الأسود : هذا ابني حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وأنظر في تقويم أَوَدِه[١] ، وأمنحه علمي ، وألهمه حلمي ، حتى يكمل عقله ، ويستكمل فتلُه .

فقالت المرأة : صدق أصلحك الله ، حَمَلَهُ خِفّاً ، وحملتُهُ ثقلاً ، ووضعه شهوة ، ووضعته كرهاً .

فقال زياد : اردد على المرأة ولد ها ، فهي أحق به منك ، ودعني من سجعك[٢] .

نرى أن الوالدين يتقاضيان في ولدهما ، فلم يفجر أحدهما على الآخر ، بل كان بينهما أدب في الكلام والحوار ، وفهم لما يريده كلّ منهما ، ولم يتعرضا لسباب أو شتائم تجرح الكرامة ، وماأحلى قول الشاعر في هذا :

جراحات السنان لها التئامٌ ... وما يلتام جرح باللّسان

---

(١) أوده اعوجاجه وميله . والتقويم : التعديل .

(٢) الحكاية عن زهر الأواب للقيرواني ٤/١١١٤ ـ ١١١٥

الأسرة في القرآن الكريم

الحياة الزوجية وهي تمثل ركن المجتمع الانساني ، وأساسه ، وقيمه ، والمحور الذي تقف عليه بناه الوقية ، كانت ومازالت أهم مايهم أصحاب القرار والتشريع وهذا أول مايجب أن يكون ، لكي تحل الرحمة ، ويستدرك مافات من انحراف ولهو وضياع ، لانه « لابقاء ما كسبه الإنسان من أخلاق المروءة والايثار إذا هجر الاسرة وفكك روابطها ».

وترابط الاسرة بدأ صريحا ، ونشأ واضحا ، واستمر حبا وعطفا ورحمة حين ضبطت العلاقة الأسرية بين الأبناء والآباء والأمهات ، فمصابيح الحروف هاهي تتدلى لتضيء الكوى المظلمة للمبصرين ، وتصفع تخرصات المضللين يقول تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين احسانا إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما في نفوسكم فإنه كان للأوّابين غفورا ﴾

هنا معاني التكافل والتّراحم ، وهنا مرتكزات الحياة السعيدة التي تقوم على الرحمة المطلقة لأن القرآن الكريم هنا انما يقيم العلاقة المثلى التي تربط أركان الأسرة الثلاثة ـ الآباء ـ الأمهات ـ الأبناء ـ وهذه الثلاثة هي ذاتها أركان المجتمع كله .

لقد قرن الله تعالى سبحانه بعبادته بر الوالدين فقال : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ وهذا

(١) المجموعة الكاملة للعقاد ـ دار الكتاب ٥/١٥٩ ـ ط ١ ـ ١٩٧٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٢٣٠) .

الاقران ذاته تأسيس الأسرة ، وكيفية هذا التأسيس ومايقوم عليه من التواضع والرحمة والقول الطيب ، ولكن بأدب « وتوقير وتعظيم » ابن كثير ٣٤/٣ .

وتستمر التوصية الربانيّة في فرض الحفاظ على وحدة الاسرة وتكامل أركانها وبنيانها ليتخذ منها المجتمع ركيزة يستند اليها ، ومنها يبدأ حركة الحياة ، يقول تعالى :

﴿ ووصّينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما اليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ العنكبوت ٨ .

كذلك قال تعالى : آمرا عباده بالاحسان الى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الانسان ولهما عليه غاية الاحسان فالوالد بالانفاق ، والوالدة بالاشفاق[1] بشرط أن يكونا مؤمنين بالله ورسوله ورسالة الاسلام الذي بعث بها محمد ﷺ .

ذلك بيان الله تعالى للناس من أجل بناء سعادتهم ، وا؟ امها في حياتهم ومن أجل حياتهم وسعادتهم ويأمر الله تعالى عباده ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير ﴾[2] .

ومن هنا استنبط ابن عباس وغيره من الائمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لانه قال في الآية الأخرى . ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ الآية .

وانما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد باحسانها المتقدم اليه كما قال تعالى ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ ولهذا قال ﴿ ان اشكر لي ولوالديك اليّ المصير ﴾ أي فاني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٥/٣

(٢) سورة لقمان : الآية « ١٥ »

(٣) ابن كثير نفسه ٤٤٥/٣

ثم يقول تعالى في الآية الأخرى بعدها ، وبعد أن قرن شكر الوالدين مع شكره سبحانه ﴿ وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الي ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [1] . وعدم الطاعة هنا يعني « حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولكن ذلك لا يمنعك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفا أي محسنا اليهما » [2]

قال الطبري في كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد حدثنا مسلمة بن علقمة بن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية ﴿ وان جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ الآية قال : كنت رجلا براً بأمي ، فلما أسلمت قالت : ياسعد ماهذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال ياقاتل أمه .

فقلت : لا تفعلي ياأمه فاني لا أدع هذا بشيء . . .

فمكثت يوم وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : ياأمه ، تعلمين و الله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت ديني هذا لشيء ، فان شئت فكلي وان شئت لا تأكلي [3] . فأكلت .

لعل ماقدمنا يدل على أن وحدة الأسرة معنية بذلك ، حرصا على وحدة الخلية الأولى التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي ليكون موحد الأركان « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

---

(١) سورة لقمان : الآية « ١٦ »

(٢) ابن كثير : السابق .

(٣) صحيح مسلم ١٨٧٧/٤ رقم ١٧٤٨ ابن كثير السابق .

والأسرة ، بالضم : الدرع الحصينة ، قاله شمر ، وأنشد لسعد بن مالك بن ضيعة بن قيس جد أبي طرفة بن العبد :

والأسرة الحصداء والبيض المكلل والرماح

والاسرة من الرجل : الرهط الأدنون وعشيرته ، لانه يتقوى بهم [١]

وعلى هذا تكون كلمة الأسرة تشير الى ذلك التكوين الجماعي الصغير لهذه الأمة الصغيرة ، والتي منها تعلم النوع الانساني أفضل أخلاقه الاجتماعية ، وهي في الوقت نفسه أجمل أخلاقه وأنفعها[٢] .

ولكي تتكامل البنى ، وتتحد عناصر المجتمع الواحد ، وتتفاعل فيما بينها ، أنزل الله تعالى كتابه الكريم القرآن وأرسل نبيه محمد ﷺ خاتما للنبين ، ومستكملا لكل عناصر الهداية الاسلامية مؤدياً الرسالة ، مبشراً بالفوز العظيم ، ومنذرا من الخطر والضلال والكفر ولكن ببساطة النقاء ، وطهارة النفس ، وكمال الصحبة القائمة على التراحم الذي أوجده الله تعالى في خلقه من البشر العاقل .

روى الامام مسلم في صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي وزهير بن حرب قالا : حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنهم قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « امك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أبوك » .

وفي حديث قتيبة : من أحق بحسن صحابتي ؟ ولم يذكر الناس[٣] .

ولعل الصحبة الأسرية في مسيرة الأعمار البشرية ، تقوم على معرفة الابناء ودورهم في تحسين الصحبة للوالدين والقيام بها من ناحية ، وصحبة

(١) تاج العروس « أسر » .
(٢) العقاد المجموعة الكاملة ١٥٩/٥
(٣) صحيح مسلم ١٩٧٤/٤٠

الأبوين في الرعاية والرفق والاشفاق كما بينا سالفا .

وقد فضل رسول الله ﷺ صحبة الأبوين على الجهاد في سبيل الله اكراماً لهما وصوناً للتكريم الالهي لهما في وصاياه تعالى الكثيرة في القرآن الكريم . فقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثنا سعيد بن منصور . حدثنا عبد الله بن وهب . أخبرني عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب ، أن ناعماً مولى أم سلمة حدثه ، أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أقبل رجل الى نبي الله ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله . قال : « فهل من والديك أحد حي ؟ » قال : نعم بل كلاهما . قال : « فتبتغي الأجر من الله ؟ قال : نعم » قال فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما »[1] .

ومن البين الجلي أن قلق المجتمعات واضطراب القيم في أغلب الأحيان ناجم عن انعدام الرحمة والود بين الآباء والأبناء ، وما ذاك إلا لبعدها عن المسار الصحيح الذي أراده الله لعباده . وها نحن نرى الإسلام يشترط للسعادة في الدارين صحبة الأبوين ماداما على الإيمان ، وأنه خاب وخزى وذل في الدنيا والآخرة من أدرك والديه ولم يحسن لهما صحبتهما . فقد روى مسلم قال : حدثنا زهير بن حرب : حدثنا جرير عن سهيل عن أبيه أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنفه . ثم رغم أنفه . ثم رغم أنفه » قيل : من يارسول الله . قال : « من أدرك والديه عند الكبر ، أحدهما أو كليهما ، ثم لم يدخل الجنة »[2] .

وقد أوصى رسول الهدى والحق ﷺ في أن يصل الولد أصدقاء الأب والأم ونحوهما في قوله : « ان أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٧٥ رقمه /٢٥٤٩/

(٢) نفسه رقم /٢٥٥١/

(٣) نفسه رقم /٢٥٥٢/

أحاديث متفرقة وردت صفة رسول الله ﷺ

قد تقدم في رواية نافع بن جبير عن علي بن أبي طالب أنه قال : لم أر قبله ولا بعده مثله ، وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عبد الله بن مسلم القضبي وسعيد بن منصور ، ثنا عمر بن يونس ، ثنا عمر بن عبد الله مولى عفره ، حدثني ابراهيم بن محمد من ولد علي قال : كان علي اذا نعت رسول الله ﷺ قال : لم يكن بالطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ولم يكن بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، كان جعدا رجلا ولم يكن بالمطهم ولا المكثم ، وكان في الوجه تدوير أبيض مشربا أدعج العينين أهدب الاشفار جليل المشاش والكتد ، أجرد ذو مسربه ، شثن الكفين والقدمين إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوه ، أجود الناس كفا وأرحب الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة وألينهم عريكة ، وألزمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله وقد روى هذا الحديث الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الغريب ثم روى عن الكسائي والاصمعي وأبي عمرو تفسير غريبه ، وحاصل ماذكره مما فيه غرابة : أن المطهم هو الممتلىء الجسم ، والمكثم شديد تدوير الوجه . يعني لم يكن بالسمين الناهض ، ولم يكن ضعيفا بل كان بين ذلك ، ولم يكن وجهه في غاية التدوير بل فيه سهولة ، وهي أحلى عند العرب ومن يعرف ، وكان أبيض مشربا حمرة وهي أحسن اللون ، ولهذا لم يكن أمهق اللون ، والادعج هو شديد سواد الحدقة ، وجليل المشاش هو عظيم رؤس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين ، والكتد الكاهل ومايليه من الجسد وقوله : شثن الكفين أي غليظهما ، وتقلع في مشيته ، أي شديد المشيه ، وتقدم الكلام على الشكله والشهلة والفرق بينهما ، والاهدب طويل أشفار العين ، وجاء في حديث أنه كان شبح الذراعين ، يعني غليظهما و الله تعالى أعلم .

الخطبة

كيف ولماذا

وهي طلب المرأة من أهلها للزواج كما حدده الشرع الاسلامي ، وهنا نرى أن رسول الله ﷺ لم يدع مجالا لأحد من الطرفين الرجل والمرأة أن يتحكم في الآخر دون وجه حق ، أو دون تراضٍ عادل في النفس ، فلا ارغام ولا اكراه ، وذلك صونا للعلاقة الزوجية التي تؤسس على الخطبة لان الحياة تتطلب الاستقرار والعمل والايمان ، والاشباع العاطفي أيضا . يقول ﷺ : « ماستفاد مؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا من زوجة صالحة ، ان أمرها اطاعته وإن نظر اليها سرته ، وان أقسم عليها أبرته ، وان غاب عنها نصحته في نفسها وماله »[1] ، ولهذا فان طلب المرأة على هذا الحال هو مايبحث عنه الانسان العاقل الواعي الذي يريد لحياته أن تكون في سعادة وهناء .

ولا حرج في أن ينظر الخاطب الى من يخطب من النساء فقد أوصى بذلك رسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره انه تزوج امرأة من الأنصار . فقال له رسول الله ﷺ « أنظرت اليها ؟ » قال : لا . قال : « فاذهب فانظر اليها . فإن في أعين الانصار شيئا »[2] .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ١/٤١٥ ـ ٤١٦.

(٢) صحيح مسلم كتاب النكاح ٢ / ١٠٤٠ رقم الحديث ١٤٢٤ ـ دار الفكر بيروت ط ٢ ـ ١٩٧٨

وهذا من الضرورات فربما لم تقع أو لم يقع أحدهما في نفس الآخر ، ولهذا كانت الخطبة والنّظر الى المخطوبة حلالا ، فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ، وأم سليم تنظر الى امرأة فقال : شمي عوارضها وانظري الى عقبها »[1] وتلك عادة متبعة منذ القديم حيث نرى النابغة يشير الى هذا المعنى فيقول :

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيـع بجني نخـلة البرمـا

وقال الأصمعي : اذا اسود عقب المرأة اسود سائرها[2] .

ومالنظر في هذه الحالة الا لتبيان ماتريده النفس ، فربما نفرت هذه من ذاك أو هذا من تلك وربما كانت بداية حياة مؤسسة بشكل سليم ولهذا يقول ﷺ : « اذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها » « إذا كان إنما ينظر اليها لخطبته ، وإن كانت لا تعلم »[3] .

ولم يجعل حرجا في المصارحة بين الخاطبين لاتمام الراحة والاطمئنان النفسي لهما فيقول ﷺ : « اذا خطب أحدكم المرأة فليسأل عن شعرها ، كما يسأل عن جمالها ، فان الشعر أحد الجمالين »[4] ولكن على الرجل أن يبين مافيه لتكون المخطوبة على بينة من الأمر ، وفي هذا يقول ﷺ : « اذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب »[5] . وفي هذا غاية الوضوح وغاية الطمأنينة .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل » قال : فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها ، حتى رأيت مادعاني إلى نكاحها وتزوجها فتزوجتها[6] .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١٠/٨ وقد مرّ .
(٢) نفسه .
(٣) الجامع الصغير للسيوطي الحديث رقم ٥٧٩ الجامع .
(٤) الجامع الصغير للسيوطي ١/٧٧ رقم الحديث ٥٧٩
(٥) نفسه .
(٦) سنن أبي داود ٢/٥٦٥ الحديث رقم ٢٠٨٢

ولا يحق للأهل أن يرغموا ابنتهم على الزواج ، وعليهم أن يستأمروها ، وذلك لتذهب إلى بيت زوجها راضية النفس مرتاحة الضمير ، وتستعد لبناء أسرة تحفها المحبة ، فعن ابن عباس رضي الله عنه « أن جارية بكر » أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة ، فخيرها نبي ﷺ »[1] .

إن الخطبة في الإسلام كما روي فيها عن رسول الله ﷺ ، ليست شكلية وإنما هي عملية تستدعي تبيان ماوراء النفس حتى لايكون هناك شططاً ولا فتوراً ناجماً عن اضطراب نفسي في العلاقة الزوجية ، فالبكر تستأذن ، والثيب تستأمر ، وكذلك اليتيمة فانها تستأمر في نفسها . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لاتنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قال : يا رسول الله وكيف ، قال : « أن تسكت »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تستأمر اليتيمة في نفسها فان سكتت فهو اذنها ، وان أبت فلا جواز عليها »[3] .

وهكذا أعطى رسول الله ﷺ الحرية في الاختيار ، وضمن للمرأة حرية القول الفصل والارادة المتصرفة في امورها بكامل الحرية ، لان رسالته ﷺ جاءت من الحق وبالحق ، لتؤسس البنيان على الحق ، بتربية مثلى ، وقيم خلقية عليا ترف دائماً بالأفق الأعلى ، لتحفظ للانسان كل انسان حقه كاملاً ، وتهدي قلبه وبصره إلى سواء السبيل .

---

(١) نفسه ٢/٥٧٦ الحديث رقم ٢٠٩٦

(٢) راجع مسلم كتاب النكاح « باب استئذان الثيب في النكاح والبكر بالسكوت ١٠٣٦ وما بعدها .

(٣) نفسه وأبي داود ٢/٥٧٣ ـ ٥٧٤ رقم الحديث ٢٠٩٣ ـ طبعة دار الحديث حمص ـ سوريا اعداد وتعليق عزت عبد الدعاس وعادل السيد الطبعة الاولى ١٣٨٩ هجرية ـ ١٩٦٩ / ١٩٧٠

المرأة الانسانة

مكرمة عند رسول الله ﷺ

لن تجد المرأة ملاذاً لها كالإسلام، ولامنصفاً مكرماً لها مثل محمد ﷺ. ولن تبصر في علم من العلوم حقيقتها كما أثر عن النبي ﷺ ، ولا قيمتها الانسانية ، ورعايتها كمخلوقة مكرمة تستحق البر فوق ماتطلبه نفسها إلا في منهجه ﷺ ، وإنها لتجد حقوقها مبثوثة في أثناء أحاديثه تأمر بالانصاف والعدل ، وفي أحاديثه وحياته مايروي الظمأ ، ويشفي الفؤاد ويدعو إلى الحق والخير والعدل والرحمة .

لقد وضع رسول الله ﷺ دستوراً يقوّم الحياة ، ويبنيها على النقاء والطهارة والعفة ، على مكارم الأخلاق ، على محبة دائمة وتقى مستمر ، فكان القدوة والأسوة والبشير والنذير ، فحدد المفاهيم ونقاها : « خياركم خيركم لأهله »[1] هكذا بإطلاق المعنى ، لكي يعرف المسلمون ماهو الخير ، ولكي يسلكوا السبيل إلى مايرشد إليه الحديث الشريف . ويؤكد هذا المعنى بما لايدع مجالاً للتساؤل فيقول ﷺ « خياركم خياركم لنسائهم »[2] وهي دعوى إلى الحرص على طيب المعاشرة وحسن المعاملة ، فجعل المرأة قيمة ترتقي إلى أسمى مراتب التقدير والحب . يقول ﷺ : « إنما حبب إلي من

(١) الجامع الصغير للسيوطي ٥٤٢/١ الحديث ٣٩٩٠

(٢) نفسه ٣٩٩١

دنياكم النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[1] .

فهي بما هي نفس وفطرة وأحاسيس ، يجذبها الجمال والنظافة والخلق والأدب ، وتنفرها الفوضى في المظهر وسوء الأخلاق وقلة الأدب ، حتى في عنف لحظات الرغبة وإكراماً لمشاعرها الفطرية ، واستجابة لرغبة ضمنية لاتستطيع المرأة التصريح فيها حياء وخجلا ، يقول ﷺ : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم ، واستاكوا وتزينو وتنظفو ، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك ، فزنت نساؤهم »[2] .

لقد وضع ﷺ قواعد العلم النفسي قبل أن يعرفه العلم ، فضبط الأحكام بأحاديث تضبط المعاملة وتوجهها إلى أرقى درجات الانسانية الخيرة الواعية ، الآخذة من الشريعة هديها ، ومن الكتاب والسنة منهجها ، ومن الله ثوابها ، ومن النبي ﷺ كتابها وبيانها وكمالها « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم »[3] .

ولكي يكون المسلم كذلك فلا بد له من أن يستدرك مافاته من منهج ، وما لم يعلمه منه لكي يبلغ الخير ، ويدرك الكمال .

وكما أن الرجل يحب في المرأة الجمال والأناقة ، والمنظر الذي يروق للعين والقلب ، فكذلك المرأة لها ماللرجل من الرغبة في النفس والمنظر والحب للجمال ، فكان رسول الله ﷺ الحكم الفصل المبين لكل مايرجوه الزوجان وينشده في صاحبه ، لكي تستمر المودة ويبقى الاحترام في الشكل والمضمون معاً . ولأن المنظر الذي يؤذي بصر الرجل هو نفسه الذي يؤذي بصر المرأة . فالزوجان معنيان ، وعلى كل منهما أن يراعي الآخر فيما يحب ، ويبعد عما يكره ويحترم للآخر مشاعره وأحاسيسه في كل حق وجب عليه .

وإذا كانت الحياة الزوجية بما يجب أن تقوم عليه وتستمر ، هي فن

(1) جامع الصغير للسيوطي ١٣٢/٣ الحديث رقم ٨١٨٤

(2) الجامع الصغير ١٥٨/١ الحديث ١٢١٨

(3) الجامع الصغير ١٨٤/١ الحديث رقم ١٤٤١

عالي المستوى يقتضي من الزوجين التفهم الكامل لطبيعة الآخر واستجابته للمعاشرة ، فإن الإسلام هو الذي أوجد وقوم له فن العلائق الأخلاقي الراقي إلى درجة لم تستطع بلوغها العلوم الوضعية ولا الدراسات النفسية المتخصصة ، وذلك لتعذر سبل المعرفة على هذه الدراسات ، ولجهل الدارسين بطبيعة الخلق وفطرة المخلوق ، وتلك كانت أيضاً في ضمير الغيب ، ولكن الإسلام بين المبهمات ، وكشف الحجب عن المغاليق ، وأوضحها ، وأسسها على أصول تربوية مسلكية أخلاقية ، سواء في غرفة النوم ، أو على سرير الزوجية ، أو في المعاملة التي بها تحلو الحياة وتستمر طيبة هانئة ، فجاءت الأحاديث الشريفة لتغني عن البحث والضرب في المجهول ، ولتضع الحقائق النفسية كاملة سهلة في التناول ، وسهلة في التطبيق والسلوك .

والحياة الزوجية لاتقوم إلا على الأخلاق ، ولا حياة زوجية ناجحة الا إذا استمتعت بالأخلاق العملية ، فالتعامل الزوجي أدب وأخلاق ، والمعاشرة أدب وأخلاق ، ولا يمكن أن تمارس رغبة أو حب أو جنس أو أي شهوة كانت وتريد منها النفس اشباعها الغريزي إلا بالأخلاق ، وأما إذا مورست بلا أخلاق فإنما هي حيوانية تنحدر الى مستوى البهيمة ، التي لا تتذوق اللذة الحقيقية ولا النشوة المطلوبة الا كما هي عند الحيوانات .

والحياة الزوجية تقوم على معرفة حقوق الزوج وواجباته ومايجب عمله له . يقول ﷺ : « حق الزوج على زوجته أن لو كان به قرحة للحستها مأادت حقه »[1] وأما بحق المرأة على زوجها فيقول ﷺ :

« حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم ، ويكسوها اذا اكتسى ، ولا يضرب الوجه ، ولا يقبح ولا يهجر الا في البيت »[2].

(١) جامع الأحاديث للسيوطي ٧٦٨/٣ الحديث /١١٢٧٩/ للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير - تحقيق صقر أحمد الدباس وأحمد عبد الجواد مطبعة هاشم الكتبي باشراف محمد سعيد الحنبلي دون ذكر سنة الطبع .

(٢) نفسه ٧٦٨/٣ الحديث ١١٢٨٠

الطفولة والرجولة القدوة

قد كان رسول الله ﷺ « يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته ، أنه قال : « لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، أخذ ازاره وجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، اذ لكمني لاكم لاأراه ، لكمة وجيعة ثم قال : شد عليك إزارك . قال : فاخذته وشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وازاري علي بين أصحابي[1] .

ومن هنا نرى بداية التربية وغاية الأدب ، وما أكده ﷺ في قوله : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . ثم يرتقي الأدب ويأتي الوصف الالهي الأكمل ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[2] .

وقد أمضى أعوامه الأولى في بادية بني سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص في شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان ، كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعوراً مبكراً بالمسؤولية ، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسعت من أفقه ، وزودته بعض خبرة بالدنيا والناس ، فكان في ابان شبابه الرجل الناضج الجلد الصبور ، الذي تلمح شخصيته آثار البادية ، وفي سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم : مثل الحجاج ، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجاري بين الأطراف المتحضرة في الجزيرة ، وفيها تلمح في عقله تجارب الحياة الجادة العاملة ، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين[3] .

---

(١) نفسه السابق .

(٢) سورة القلم : الآية « ٥ »

(٣) سيدات بيت النبوة ، د . عائشة بنت الشاطىء ـ طبعة دار الكتاب العربي بيروت طبعة ١٤٠٢/١٩٨١ ص ٢٠١

والرجل القدوة أوصافه

إنه لمن الصعب جدا أن يفصل المرء المتتبع لسيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ بين كونه الزوج والرجل ، وبين كونه النبي والرسول ، لأن الأولى من مراحل الزمن التي عاشها ﷺ ، انما هي مقدمة للثانية ولا فصل بين المرحلتين ، فتربية وأخلاق في الأولى ونبوة ورسالة في الثانية ، جمعتهما بشريته ﷺ ، فهو كما قال جل جلاله : ﴿ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي ﴾(١) .

ولا أريد هنا أتتبع سيرته ﷺ ، ولكن أريد أن أسجل وقفات أحاول من خلالها أن أصل المرحلتين بناظم يثبت أن المرحلة الأولى هي مرحلة الاعداد لحمل الرسالة ، وهي مرحلة التربية بما فيها من توطين للنفس الزكية وترويضها على مواجهة المهمة التي تحملها صلوات الله وسلامه عليه ، من حمل للرسالة وأعبائها ، ومواجهة الأعداء على اتساع العالم بدءا من أقرب الناس اليه « أعمامه » وانتهاء بالقوى العاتية الضاربة عسكرياً في ذلك الوقت .

لقد شبّ رسول الله ﷺ على مكارم الأخلاق و الله تعالى يكلوه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثاً ، أعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، تنزهاً وتكرماً حتى ماسمه في قومه إلا الأمين لما جعل الله فيه من الأمور الصالحة(٢) .

(١) سورة الكهف : الاية « ١١٠ » و ٦ من سورة فصلت .

(٢) الروض الأنف للسهيلي ١/٢٠٧ ـ ٢٠٨

عظمة في كل شيء

لم تكن العظمة في رسول الله ﷺ اكتشافا ابداعيا توصل اليه البحث البشري ، ولكنها قائمة في خلقه وخلقه ، موجودة ثابتة في تكوينه ، ماثلة في أخلاقه وسلوكه ، مستوية في جملته ، بينة في كلمته كامنة في أنوار خلاياه ، تامة في فرائد مزاياه ، ولا أدل على هذه العظمة من قوله تعالى فيه : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم﴾. وهذه العظمة إذا ليست مفاجأة في الزمن، ولاهي لحظة عقلانية جاءت بعد تقدم السن ، ولا هي مكتسبة من عوامل أخرى ، وانما هي كائنة مكونة بالأمر الالهي منذ بدأ الخلق .

ورسول الله ﷺ ، رجل بشر ، ولكنه لا كالرجال والبشر في تمام صفاته وكمالها ، فعن علي كرم الله وجهه قال : « كان رسول الله ﷺ أبيض اللون ، مشربا حمرة ، أدعج العين ، سبط الشعر ، كث اللحية ، سهل الخد ، ذا وفرة ، دقيق المسربة ، كأن عنقه ابريق فضة ، له شعر من لبته الى سرته يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، اذا مشى كأنما ينحدر من صبب ، واذا مشى كأنما ينقطع من صخر ، اذا التفت التفت جميعاً ، كأن عرقه في وجهه اللؤلؤ ، ولريح عرقه أطيب من المسك الأذفر ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، ولا بالعاجز ولا اللئيم ، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[1] .

وعن محمد بن المثنى ومحمد بن بشار (واللفظ لابن المثنى) . قالا حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ ضليع الفم . أشكل العين .

---

(١) الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الواقدي تقديم الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر طبعة دار التحرير القاهرة في ٤ رمضان ١٣٨٨ - ١٩٦٨ ص ١٢٠ - ١٢١ القسم الثاني

منهوس العقبين . قال قلت لسماك : ماضليع الفم ؟ قال : عظيم الفم . قال قلت : ما أشكل العين ؟ قال : طويل شق العين . قال قلت : مامنهوس العقب ؟ قال : قليل لحم العقب[1] .

ولقد جمع له ﷺ من الشمائل مالم يجمع لمن قبله ومن بعده ، فاجتمع له كل مايبهج النفس ويشدها ويتمكن منها ، وهو إلى ذلك « أجود الناس كفاً ، وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه[2] .

ومن شمائله ﷺ ماذكرته السيدة « خديجة » أم المؤمنين رضي الله عنها حيث عرفته أميناً صادقاً ، وزوجاً ونبياً وأباً كريماً فقالت له ﷺ في أول بدء نزول الوحي عليه : « أبشر فوالله لايخزيك الله أبداً ، ووالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين نوائب الحق . »[3] .

هذه شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت[4] ، وقبل أن يبعث نبيا رسولا ، وتلك شهادة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان قد عاش مع النبي ﷺ في بيت أبي طالب، ثم انتقل معه صبياً بعد أن غادر هذا البيت وتزوج من السيدة خديجة رضي الله عنها .

وفي حديث لأم معبد الخزاعية « عاتكة بنت خالد » قالت تصفه ﷺ ، وقد رأته في هجرته قبل أن تعرفه : « رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ... وسيم قسيم في عينيه دعج ، وفي أشفاره

---

(١) صحيح مسلم ١٨٢٠/٤ الحديث ٢٣٣٩ كتاب الفضائل « ٩٧ » وأوصافه ﷺ ١٨٠٢ ومابعدها .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص ٤٨ - ٤٩ مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية بالكويت ط لعام ١٤٠٦هجرية /١٩٨٦ م .

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٠٥/٢

(٤) سيدات بيت النبوة للسيدة الدكتور عائشة بنت الشاطىء ٢٠٣

وطف ، وفي عنقه سطع ، وفي صوته صحل ، وفي لحيته كثاثة ، أزج أقرن ، ان صمت فعليه الوقار ، وان تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لانزر ولا هذر . . ربعة ، لا بائن من طول ، ولا تقحمه عين من قصر ، له رفقاء يحفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره[1] .

وهنا من هذه القطوف نرى اجماع الرأي على القدوة في كل صفة وخلق مما يجعل النظر يتبعه . والقلب يهفو اليه ، والحياة تحلو في ظلال شمائله .

وما نريد هنا أن نطيل فيما ورد عن صفاته ﷺ ، فليس « في التاريخ العربي كله من جمعت صفاته وأحصيت شمائله ، وتواتر النقل بذلك جميعه من طرق مختلفة على توثق اسنادها ـ غير النبي ﷺ ـ وهذا أصل لا يعدل به شيء في بيان حقائق الأخلاق ، والاستدلال على قوة الملكات ، واستخراج الصفات النفسية التي حصل من مجموعها أسلوب الكلام على هيئته وجهته ، وانفراد بما عسى أن يكون منفردا به أو شارك فيما عسى أن يكون مشاركا فيه .[2]

ولهذا جئنا بطرف من صفته ﷺ .



---

(١) نفسه عن الاستيعاب ١٩٥٩/٤ وعيون الأثر ١٨٨/١ و٣٢٣/٢

(٢) إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي بيروت دون ذكر سنة الطبع ص ٢٨٨ ومابعدها في صفته ﷺ وراجع : محمد ﷺ المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص ١٤ ومابعدها .

منطقه ﷺ

« كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقة [1] ، ويتكلم بجوامع الكلم [2] فضلا لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافي ولا المهين [3] ، يعظم النعمة وان دقت لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ذواقاً [4] ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه اذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، اذا أشار أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل بها فضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسّم ويفترّ عن مثل حبّ الغمام [5] .

ولقد وافته ﷺ أسرار اللغة ومعانيها المحكمة طائعة متدفقة بنفاذها المعنويّ وقوتها الابلاغية ، وحلاوتها المنطقية ، تتكافأ فيهاالمعاني والألفاظ ، وترق فتصل الى القلوب بشفافية نورانية تكفي المرء سداداً ورشداً .

---

(١) أي يستعمل جميع فمه للتكلم ولا يقتصر على تحريك الشفتين وذلك من قوة المنطق والصوت وللمعنى وحضور الذهن واجتهاعه .

(٢) تجمع المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة مع حكمة وسمو بلاغة .

(٣) الدماثة بسهولة الخلق ، والجفاء : غلظة .

(٤) هو مايتذوق من الطعام .

(٥) اعجاز القرآن للرافعي ٢٩٠

الفصل الثالث

آ ـ

١ ـ الزوج القدوة قبل البعثة

٢ ـ الارادة والارادة الجنسية في الإسلام

٣ ـ فصاحة فريده

ب ـ معاملته في بيته ﷺ

٤ ـ أخلاقه في بيته مع زوجاته

٥ ـ عمله ﷺ

٦ ـ سماحته ولطفه ﷺ

٧ ـ تحمله ورعايته لهن ﷺ

٨ ـ مواقف النّساء ورحمته بهن ﷺ

٩ ـ مكانة ذوى الرحم عنده ﷺ

١٠ ـ في سرير الزوجية

وقفة أخيرة تحت الظلال

الزوج القدوة قبل البعثة

علمنا انه حين بلغ رسول الله ﷺ خمسا وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، وذلك قبل البعثة بخمسة عشر عاما . وعاشت رحلة العمر بما فيها من حلوومر ، وما دخلتها من أفراح وأحزان .

ولذلك « فان السيدة خديجة تنفرد من بين نساء النبي - ﷺ - جميعا بأنها وحدها التي عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ[1] .

وكانت خديجة رضي الله عنها « امرأة ذات شرف ومال ، وكانت تدعى في الجاهلية « الطاهرة » لشدة عفافها وصيانتها »[2] ، وهي أول زوجاته ﷺ ، ولم يتزوج من غيرها حتى توفيت .

وخديجة التي عرفت يتم محمد ﷺ ، ورعي الغنم ، وأنه لا مال عنده ولكنها عرفت من خصاله ﷺ ماجعلها تطلب الزواج منه ، على مكانتها في قومها ، وكثرة مالها ، حين عرفت من أمانته وصدقه وأخلاقه ماتتمناه كل مرأة . وهي القائلة « والله مايخزيك الله أبدا . . . انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب حق[3] .

لقد ملكتها القناعة ، وحب الرجولة بالرغم من فارق السن ، ومكانتها - والقيم التي اشتملت عليها تربيته ﷺ ، وقد تابعت سيرته ، وخبرته وجرّبتها ، حين بلغها عن رسول الله ﷺ مابلغها ، من صدق

---

(1) سيدات بيت النبوة - بنت الشاطىء ٢٠٣٠

(2) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٧/١

(3) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٠٥/٢

حديثه وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ـ مما دعاها الى أن تعرض عليه ـ أن يخرج في مال لها الى الشام تاجرا »[1] .

وبعد كل ماعرفت عنه ، أرسلت اليه وصارحته برغبتها وقالت : يابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسلطتك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه[2]

ولقد كانت خديجة رضي الله عنها سندا ، وحضنا دافئا فيه الحنان كله ، والوفاء كله ، فآمنت به ﷺ ، وصدقت بما جاءه من الله ووازرتهُ على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس ، رحمها الله[3] تلك المرأة رضي الله عنها ، لم يدفعها حب الزواج بالنبي ، بل بالرجل الذي اجتمعت كل صفات الرجولة التي تحبها المرأة في الرجل ، فأكرمها الله لصدقها ووفائها وحبها له ﷺ ، حتى نالت البشرى والدرجة الرفيعة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريل النبي ﷺ . فقال : يارسول الله هذه خديجة قد أتتك . معها اناء فيه ادام أو طعام أو شراب . فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها عز وجل . ومني . وبشرها ببيت في الجنة من قصب . لا صخب فيه ولا نصب . قال أبوبكر في روايته ـ ابن أبي شيبة ـ عن أبي هريرة ولم يقل سمعت ، ولم يقل في الحديث : ومني[4] .

---

(١) السيرة لابن هشام ١٨٨/١

(٢) السيرة النبوية ١٨٩/١

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ٥٣

(٤) صحيح مسلم ١٨٨٧/٤ رقم الحديث ٢٤٣٢

وفاؤه ﷺ

كانت خديجة رضي الله عنها قد ولدت لرسول الله ﷺ : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة[1] وبعد أن توفيت « وكانت له وزير صدق على الاسلام »[2] ظل ﷺ الزوج الوفي ، الذي حفظ لها الحب والاحترام ، حتى أن السيدة عائشة رضي الله عنها ، كانت تغار منها حتى بعد وفاتها ، ولم ترها فعن عروة عن عائشة قالت : « ماغرت للنبي ﷺ على امرأة من نسائه ، ماغرت على خديجة لكثرة ذكره اياها ، ومارأيتها قط »[3] .

وكان لحبه ﷺ لخديجة رضي الله عنها يحفظ ودها ، ويصل أصدقاءها بالخير ، وهي التي عوضته عن سني القسوة حباً وحناناً ، علاوة على أنها أم ولده ، وقد صرح بهذا الحب علانية ﷺ حتى بعد وفاتها ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « وكان رسول الله ﷺ اذا ذبح الشاة فيقول : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » قالت : فأغضبته يوماً ، فقلت : خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ « اني قد رزقت حبها »[4] .

ويظل صوتها يطوف على مسامع رسول الله ﷺ ، فيتذكر في صوت أختها « هالة بنت خويلد » خديجة رضي الله عنها ، فتغمره الراحة والسرور ، فيستقبلها بالبشاشة وطلاقة الوجه التي لا تفارقه كدليل لحفظه الود وحرمة العشير في الحياة وبعد الممات : فعن هشام عن أبيه ، عن عائشة

---

(١) سيدات بيت النبوة ٢٢٣ وفي السيرة : الطيب والطاهر فيقول ابن هشام : أكبر بنيه القاسم ، ثم الطيب ثم الطاهر ... راجع السيرة ١٩٠ ومابعدها .

(٢) تهذيب السيرة /٩٥/ عبد السلام هارون .

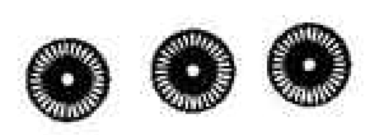
(٣) صحيح مسلم ١٨٨٩/٤ راجع باب فضائل خديجة رضي الله عنها ١٨٨٦ ومابعدها .

(٤) نفسه ١٨٨٨/٤

رضي الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ . فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك . فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فغرت فقلت : وماتذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها »[١] .

فتغيّر وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضباً« والله ماأبدلني الله خيراً منها : آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » فأمسكت عائشة رضي الله عنها وهي تقول في نفسها : « والله لاأذكرها بعدها أبداً »[٢] .

لقد تحملت رضي الله عنها كل المتاعب التي واجهت الرسول ﷺ في سبيل الدعوة معه ، وهي أقسى ماسجل التاريخ من الأذى ومن العنت والظلم والاضطهاد القرشي الجاهلي ، ولكم ضمته إلى صدرهاتهدىء من روعه ، فكان لها الزوج الوفي ، والحبيب المخلص في حياتها وحين أسلمت روحها للخالق بين يديه ، وحمل لها الحب والوفاء بعد مماتها ، ﷺ .



---

(١) نفسه .

(٢) سيدات بيت النبوة ٢٣٤ والعبقريات الاسلامية للعقاد ١٧٣/٣

الارادة والارادة الجنسية في الإسلام

إن الحياة الزوجية بما هي قائمة عليه من علاقة روحية جسدية خلقية ، إنما تخلق « بالود والرحمة والسكينة » اتحاداً عضوياً ، وتوحداً روحياً يوجه العلاقة ويصوغ المعاملة ، ويفتح بالأخلاق حياة جديدة هادئة هانئة مطمئنة . فكما أن يد الانسان وعقله وتفكيره وارادته وأعضاءه ملك له وحده ، وهو مسؤول بها ومسؤول عنها ، ولا يمكن أن تكون لغيره ، فكذلك المرأة والرجل كل منهما للآخر ولا غير . فالمرأة تملك الرجل بما أوتيت من جمال العلم والصورة والخلق والفضائل ، والرجل يملك المرأة بما أوتي من علم وخلق وفضائل ، وكلاهما يملك الآخر ملكية تامة ، فهما للمتعة والعبادة والعلم والحياة ، وهما كل للآخر كتاب يتناول صفحاته متى شاء وأنى شاء وحيث شاء ، على أن لا يكون التناول مخالفاً للطبيعة والفطرة والخلق القويم . فيبحث كل منهما عما يرضي الآخر ويسد فراغه النفسي بما يحقق سعادة الزوجية والأسرة الكريمة .

ولرب قائل يقول : ان التزيين معروف وموجود في القرآن الكريم ، ولذا فإن الانسان يضعف أمام المرأة والكلام كثير .

ان التزيين وانعكاسه وأثره في النفس . لم يكن وحده المغطي لساحة النفس بل خلق الله معها الارادة ، وهي أداة الضبط والتحكم والتوجيه . وهذه الارادة لا تتجزأ ، كما أن الانسان ذاته لا يتجزأ في انسانيته ، ولا يمكن أن يكون انساناً وحيواناً في نفس الوقت واللحظة والمكان ، فهو اما انسان في

سويته وسلوكه ، واما هو حيوان في سلوكه وتصرفاته . فالأنسنة: شعور يقرره الانسان بنفسه ولنفسه ، وبذلك تتكامل الصفة مع الموصوف ، وهذا الشعور ، انما هو استجابة للفطرة النوعية والحفاظ على دوام طبيعتها ، وهي ايناس النفس بمحمولاتها الخلقية ، وايناس الآخرين بها وبخاصة الزوج والولد والأهل .

وأنسنة الانسان في الإسلام ، تكمن في مودته ورحمته وحبه ، فأسعد الزواج هو ماقام على هذه الروابط وليس كما يقول الأجانب « ان الذي يتزوج عن حب سيعيش في كرب »[1] .

والحب تدبير الهي وتأليف بين القلوب ، تتوافق فتتألف فتتراحم بالمودة والرأفة ، فتتدبر في شؤون الحياة الأخرى ، وتتلمس طريقها بالبصيرة الواعية العاقلة .

والحب روحانية تتجلى في ذلك الاتساق والانتظام في الحياة الزوجية التي توجهها ارادة واحدة متحدة في فعلها وأهدافها وغاياتها ووسائلها . وليس الحب « خديعة تدبرها الطبيعة لاداء أغراضها » و« ليس الزواج يبلي الحب ويقضي عليه » .

وليس صحيحا انه « لا يسعد بالزواج سوى الفلاسفة ولكن الفلاسفة لا يتزوجون »[2] هذا مايقوله فلاسفة الغرب عن الحب والزواج والحياة الزوجية ، وأما نظرتنا الاسلامية فانما تقوم على ماذكرته الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي أعطت الحق للذكر والأنثى ، ولم تحرم الا ماكان فعله ضررا ، وهذا ماأثبتته الحقائق العلمية الحديثة التي بحثت في شؤون الأفراد وبناء المجتمعات ، وهو عندنا ثابت منذ أربعة عشر قرنا خلت . ﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ﴾[3] .

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ٤١٠

(٢) نفسه .

(٣) سورة البلد: الآية «٦ - ٧ - ٨»

ان الارادة الحقة هي : التحريك الأمثل للبصيرة عن طريق مسالكها الحسية والذهنية المدركة لطبيعة الأشياء ، بقصد الوصول الى المعرفة الكلية بالأشياء ، والالمام بأدوارها في الحياة ، وخصائصها ، ومايمكن أن تؤول اليه ، ومعرفة العلاقة التبادلية والتركيبية بين هذه الأشياء في الكون والطبيعة والحياة ، ولهذا يقول تعالى :

﴿ ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾ .

والارادة في الاسلام : هي توجيه الملكات النفسية والعقلية والخلقية وقواها نحو الأرقى والأسمى ، وتهذيب البنى النفسية والعقلية والارتقاء بها بالعلم والمعرفة ، ولا يمكن أن تتأصل في الانسان انسانيته ويبلغ سعادته التي ينشدها ، الا اذا هدى النفس وزكاها وأحسن تربيتها ، وأقام الصلة بينه وبين خالقه الذي منحه تلك القدرات والقوى والملكات .

ولن يرقى المجتمع الى مايريده الا اذا أعاد بناء جسور العدل ودعائم القيم والأخلاق ، وأسس بنيانه على التقوى ، وأصلح بالهدى والتقى حال الزوجين الذكر والأنثى ، وحمى الحياة الزوجية من طغيان المادية ونوازع الثقافات الدخيلة التي تستهدف تشويه العلاقة بين الرجل والمرأة ، لكي تهدم الروابط الاجتماعية ، فتحقق مآربها في اجتثاث أصول الحضارة العربية الاسلامية ، لأن النتيجة المحتومة لانطلاق الغرائز واباحة الجنس اباحة مطلقة هي تهديم الأخلاق ، وانعدام الفضائل وانهيار الشعوب والأمم . . .

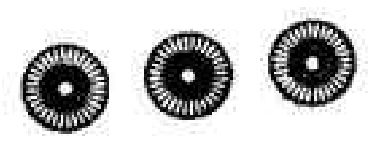
وهذا ماتؤكده الحركة الصهيونية التي تعمل على تقويض الشعوب ـ كل الشعوب غير اليهودية ـ بالجنس ، وقد جاء في كتاب بروتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ان فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو : ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه »[1] .

---

(١) فتحي يكن ـ الحياة الجنسية ص ١٩

ان الحياة كل الحياة هي أخلاق تحرك الطبائع وترتقي بها نحو السعادة والأمن ، وهي ممارسة الانسان لدوره الأمثل في الحياة بلوغا لغاية خلقه ووجوده ، وان « الاخلاق ليست شيئا منفصلا عن الواقع ،وليست نظريات تدرس في الابراج العاجية مستقلة بذاتها . وليس لها قوانين خاصة غير قوانين الحياة الواقعية . ولا يمكن أن يوجد فساد خلقي مع استقامة في حياة الناس الواقعية ... انما شيء واحد . والفساد في واقع الحياة معناه فساد في الأخلاق ... والفساد في الاخلاق معناه فساد في واقع الحياة ... لانهما قانون مستمد من الوجود البشري المتكامل والفطرة البشرية الشاملة »[1] .

ويكفينا دلالة قول رسول الله ﷺ « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[2] وتلك التي فيها تكمن الحياة .



(١) عن كتاب جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب نقله فتحي يكن نفسه .

(٢) الحديث : الموطا لابن مالك ٢/٩٠٤

فصاحة فريدة

يقول ﷺ : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الغنائم الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى خلق كافة ، وختم بي النبيون » .

فنرى انه لم يسبقه عربي في بيان ،ولم يواكبه لغوي في افصاح وكلامه كما قال عنه الجاحظ :

وهو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال تبارك وتعالى قل يامحمد ﴿ وماأنا من المتكلفين ﴾ فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقصير ، واستعمل المبسوط في وضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق .

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، بين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن اعادته وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يتلمس اسكات الخصم الا بما يعرفه

(١) الجامع الصغير للسيوطي ١٧٧/١ وكتاب المساجد في صحيح مسلم ٣٧١/١ رقمه ٥٢٣ .

الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطيء ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه ، من كلامه ﷺ كثيراً »[1] .

لقد جمع كرام الشمائل الى مكارم الأخلاق ، وعبر عنها بأفصح لسان : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ ولذلك كان ﷺ أوقع في قلوب الرجال والنساء والعرب جميعا ، لأن اللسان والفصاحة واللغة وجوامع الكلم كانت عند رسول ﷺ أقوى في الحجة والابانة فكانت اليه الأعناق ترتفع والأسماع ترنو ، والعيون تلاحقه ، وتلك حكمة بالغة ، واستجابة طبيعية للآية الكريمة : ﴿ وماأرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ﴾[2] .

ومعروف هو « حال قريش في بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ، وذكر ـ الله تعالى ـ العرب ومافيها من الدهاء ، والنكر والمكر ، واللدد عند الخصومة ، فقال : ﴿ اذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾[3] وقال : ﴿ لتنذر به قوما لدّا ﴾[4] . ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم[5] فقال : ﴿ وان يقولوا تسمع لقولهم ﴾[6] فرد ﷺ ، وظل دوام بيانه ونحن نعلم دور اللسان في الرجل العادي ، فكيف بدوره في الابلاغ والأداء ، ونعرف كيف سأل النبي

---

(١) البيان والتبين للجاحظ ٢٢١ ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت تحقيق المحامي فوزي عطوى دون ذكر سنة الطبع .

(٢) سورة إبراهيم : الآية «٤» .

(٣) سورة الأحزاب : الآية «١٩» .

(٤) سورة مريم : الآية «٩٧» .

(٥) البيان والتبين /٢٠/ .

سورة المنافقون : الآية «٤» .

موسى ﷺ ربه حين بعثه الى فرعون ليبلغه رسالته ، وليبين له ، وكيف ذكر العقدة في لسانه في قوله : ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ (١) وقال : ﴿ وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي يصدقني ﴾ (٢) لأن مدار الأمر على البيان والتبين ، وعلى الافهام والتفهيم ، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد ، كما انه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد » (٣) .

تلك وقفات أمام معجزاته ﷺ في البيان ، وبديع اللسان ، وانه ليجمع الفضل كله والخير كله ، حتى تأثر بمنطقه كل ذي عقل وفهم وصحة ، حتى أن النساء ذوات المكانة والشرف والمال كن يعرضن أنفسهن للزواج منه ﷺ .



---

(١) سورة طه : الآية « ٢٨ »

(٢) سورة القصص : الآية « ١٣٤ »

(٣) البيان والتبين /٢١/

معاملته ﷺ

أخلاقه في بيته مع زوجاته :

شهد البيت النبوي المبارك حياة العدل ، كما لم يشهده بيت آخر على مر التاريخ ، وكان الناظم لكل العلاقات بين أفراد هذا البيت الكريم هو رسول الله ﷺ . على الرغم من تعدد الزوجات ، ووجود الضرائر ، ومع مختلف العادات والتقاليد التي عاشتها كل زوجة من زوجاته رضي الله عنهن .

وصحيح أن تعدد الزوجات والضرائر كان أمرا عاديا في البيئة العربية القرشية وغيرها ، ولكن الأمر غير العادي هو العدل بين الزوجات ، وانصافهن ، والمعجز الأكبر في ذلك ارضاؤهن جميعا في النفقة ، والمعاشرة ، والنوم والحديث والعمل ومجمل الحياة ومتطلباتها الزوجية ، ولا أصعب من أن يقوم رجل واحد على عدد من البيوت على العدل والانصاف ، واعطاء الحقوق كاملة .

ولكنه رسول الله ﷺ ، الكامل بالخلق والخلق ، لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ فسبحانه ماأعظم شأنه ، وأتم امتنانه ، ثم نظر الى عميم لطفه ، وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى ؟ فهو الذي زينه بالخلق الكريم ثم أضاف اليه ذلك فقال : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[١] .

وقال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت بلى . قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن »[٢] .

---

(١) سورة القلم : الآية « ٥ » - والنص في احياء علوم الدين للغزالي ٣٥٨/٢

(٢) صحيح مسلم : ٥١٣/١ رقمه ٧٤٦ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . باب جامع صلاة الليل ١٣٩

انه ﷺ المثل الأعلى في كل سكنة وحركة ، وفي كل قول وعمل ، فأنقذ المرأة من رق الجهالة ، واستعباد المادة ، فبدأ من ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[1] وجعل معاملتها حقا مكتوبا على الرجال ، فلا عسف ولا ظلم ، والرأي لها فيما تختار لحياتها الزوجية ، فتستأمر أو تستأذن ، وتؤخذ موافقة الولي على الزواج[2] .

وبه ﷺ انتظمت الحياة ، وسقط جبروت الجاهلية ، وبدأت من الجزيرة العربية حركة العدل الالهي تتسع ، ويأخذ العدل طريقه الى النفوس في الأفراد والمجتمعات فتغيرت العادات والمفاهيم الجاهلية وانتقلت الى خيرها وماينفع الناس ، وأبطل الظلم وحل التراحم ، وأصبح القرآن أخلاقا ودستور حياة ، ولم يعد العرف والتشريع نظريات تطلق في المحافل ، وانما عملية تغيير وتنوير بالقول والفعل ، بالايمان والعمل .

عمله ﷺ :

سئلت عائشة رضي الله عنها : ماكان النبي ﷺ يصنع في أهله ؟ قالت : كان في مهنة أهله ، فاذا حضرت الصلاة قام الى الصلاة[3] فلم تأخذه غرة الاقتدار بالنبوة ، ولا جلال القدر بالرسالة ، ولا عظمة المكانة في القوم ، وانما كان شأنه التواضع في غير ذلة ، والبعد عن التنعم ، فكان عمله وقوله ووضعه سنة ، فخدم أهله ، وقام على شؤونه ، ولم يفارقه نطيب في أهله ودعوته ، في نومه وسيره ، في حربه وسلامه وحياته كلها ، ولم يدع عملا لنفسه الا قام به بنفسه ، وقد سئلت عائشة رضي الله عنها :

---

(١) سورة البقرة : الآية « ٢٢٨ »

(٢) راجع صحيح مسلم كتاب النكاح ١٠١٩/٢ ومابعدها .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني٧٧٣ـ ٨٥٢هـ ٤٦٢/١٠ طبعة دار الفكر تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي اشراف عبد العزيز بن عبد الله باز دون ذكر سنة الطبع وصحيح البخاري ٢٣٩/١ رقمه ٦٤٤

ماكان رسول الله ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل مايعمل الرجال في بيوتهم »[1] وقالت : « ماكان الا بشرا من البشر ، كان يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه »[2] وقد أوصى بالخير للأهل فقال ﷺ « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي[3] وفي ذلك تنفيذ لقوله تعالى ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾[4] فحمل الأعباء التي يجب على الرجل حملها ، ولو شاء ﷺ لقام بالعمل عنه رجال كثير ، ولكنه أراد أن يعلم الناس كيف يسلكون السبيل القويم الى الحياة التي دعا اليها ﷺ وهي التي أشار اليها القرآن الكريم : ﴿ ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ﴾[5] .

سماحته ولطفه ﷺ :

لم تشغل الرسالة النبي ﷺ عن واجباته الزوجية ، فمع عظمة العبء في تأدية الأمانة وماواجهه ﷺ من مصاعب ، كان يقوم على حاجة أهل بيته على أكمل وجه ، فكان الحب عنده متوازناً ، والايمان كاملاً ، والجهاد قائما والرسالة مؤداة ، وحب المرأة الزوجة ماثلا يسير مع كل ماتدفع به الحياة .

لقد كان ﷺ قد استجلب الأفئدة ووجه المشاعر إلى مراعاة مشاعر الزوجة ، والتلطف بها الى جانب الرعاية والارتقاء . فنراه في حديث الافك على شدة وقعه وأثره على نفسه الشريفة ، يتصرف بالعقل الكامل ، والنضج الأسر للأحلام ، والجأش المهيأ للصبر ، والعامر بالايمان ، يقوم فيخطب في الناس « ياأيها الناس . مابال رجال يؤذونني في أهلي . ويقولون عليهم غير الحق ، والله ماعلمت فيهم الا خيرا ويقولون ذلك لرجل و الله ماعلمت منه

(١) نفسه فتح الباري .
(٢) نفسه فتح الباري .
(٣) الحديث الجامع الصغير ١/٥٥٥ رقمه /٤١٠٠/
(٤) سورة النساء : الآية « ١٩ »
(٥) سورة الأنفال : الآية « ٢٤٠ »

الا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتي الا وهو معي »[1] ولم يجعل الحديث سلاحا يسلط على المرأة ، أو على المتحدثين المشيعين ، ولم يجعل من هيبة النبي وقدرته ونصرته مايفرض حلول المسائل الطارئة ، ولم ينتقم انتقام القادر المالك للحق ، فسمح لها بالانتقال الى امها لتمرضها بعد أن مرضت عائشة رضي الله عنها من شدة ماسمعت على نفسها وشرفها . ويقول ﷺ « لا عليك » فلم يبطش ولم يعنف وكان صابرا محتسبا آملا من ربه البراءة ، ولو شاء ﷺ لكفاه المؤمنون بحد السيف وضربوا أعناق أهل الافك » والفاحشة ![2]

ثم سري عن نفسه ﷺ بنزول الوحي بالبشري ومعه البراءة والقرآن الكريم : ﴿ ان الذين جاؤوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم مااكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾[3] ثم قال : ﴿ لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾[4] ثم قال : ﴿ اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾[5] . فبشرها ﷺ وهو يمسح العرق الطيب الطاهر عن جبينه الكريم الطاهر ويقول : ابشري ياعائشة ، فقد أنزل الله براءتك [6] ، قالت : بحمد الله .

وحين سمع الحديث عنها ، على ريبة الحديث ، لم يقبله بغير دليل ، ولم يرفضه بغير بينة تبرىء ساحتها ومع ذلك كان يعودها في مرضها ، ولم يصارحها بالحديث الذي سمع اكراما لها ومراعاة لشعورها : و ﴿ إن هو الا ذكروقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾[7] .

(١) راجع حديث الافك تهذيب السيرة ٢١٤ ومابعدها .
(٢) نفسه .
(٣) سورة النور : الآية « ١١ »
(٤) سورة النور : الآية « ١٢ »
(٥) سورة النور : الآية « ١٥ »
(٦) خبر الافك في تهذيب السيرة ـ السابق .
(٧) سورة يس : الآية « ٧٠ »

تحمله ورعايته لهن

وكان ﷺ من أخلاقه أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي لله عنها ، يتودد اليها بذلك . قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال : « هذه بتلك »[1] .

ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة الى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع على كتفيه الرداء وينام بالازار ، وكان اذا صلى العشاء ، يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك ﷺ[2] .

يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ ، قل يوم إلا وهو يطوف على نسائه فيدنو من أهله فيضع يده ويقبل كل امرأة من نسائه حتى يأتي على آخرهن . فإن كان يومها قعد عنها وإلا قام . فكان إذا دخل بيت أم سلمة يحتبس عندها .[3] .

ولقد عرف الرسول ﷺ أنه كان : أشد حياء من العذراء في خدرها ،

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة من حديث بسند صحيح .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٦٦

(٣) نساء أنزل الله فيهن قرآنا د عبد الرحمن عميرة ص ١٤٣ طبعة دار اللواء للنشر والتوزيع بالرياض ١٣٩٨ هجرية ١٩٧٨ م .

ولاشك أنه كان ﷺ من النجدة والشجاعة والبأس والإقدام ولقاء العدو في الغاية التي تكبو دونها سوابق الأبطال ، وتتبرقع الفرسان بغبارها فإنه كان في حروب الكفار أقرب الناس الى العدو ـ وفيه ـ قال علي كرم الله وجهه : كنا اذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ » وناهيك بعلي رضي الله تعالى عنه وشجاعته .[1] .

ومع هذا كان يتحمل من أزواجه المراجعة والغيرة ، والهجر أحياناً ، ويصبر عليهن لعلمه بما هي عليه الأنثى وضعفها ، والعقوبة عنده بحسب الحال ، فيغضب ، أو يهجر ، أو يزجر ، أو يحتكم . ﷺ ، فقد جرى بينه وبين عائشة رضي الله عنها كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً واستشهده فقال رسول الله ﷺ « تكلمين أو أتكلم » فقالت : بل تكلم أنت ولا تقل إلاّ حقاً ، فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال : يا عديّة نفسها ، أو يقول غير الحق . فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره ، فقال النبي ﷺ : لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا[2] .

وقالت له مرة في كلام غضبه عنده : أنت الذي تزعم أنك نبي الله ، فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً[3] .

وفي يوم راجعت امرأة عمر بن الخطاب عمراً في الكلام فقال : أتراجعيني ؟ فقالت إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه ، فقال : خابت حفصة وخسرت إن راجعته ، ثم قال لحفصة : لا تغتري يا بنة أبي قحافة ، فإنها حب رسول الله ﷺ ، وخوفها من المراجعة[4] ثم يمضي عمر عن حفصة رضي الله عنها ، وتستجيب لما أمرها له ، وتطيع زوجها وتؤدي ما عليها تجاه

---

(١) نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ص ١٣٤ . للشيخ عبد الغني النابلسي عالم الكتب بيروت ومكتبة المتبني بالقاهرة . دون ذكر سني الطبع .

(٢) احياء علوم الدين ـ للغزالي ٢/٤٣

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

زوجها وربها"[1]

لقد كانت أخلاقه ﷺ تتسع لنفرة الأنثى ، وغيرة الزوجات ، ومنافسة الضرائر فيطيب خاطر هذه ، ويقبل على تلك بالبشر والابتسام والرحمة ، ويهدىء من ثورة الأخرى ويلين جانبها ، حيث كن رضي الله عنهن يظهرن ويجهرن بالمنافسة ، ولكنه اللطف والسماحة والرفق ، وتلك تربية الفطرة فيه ﷺ ، وهذه الفطرة لم تكن مكتسبة أو طارئة ولا هي تنتمي الى مدرسة أو جامعة أو أكاديمية ، وإنما هي موجودة بالخلية الأولى التي كانت شاهدة بداية التكوين والخلق ، ولهذا لم تطلها يد الهوى ، ولم تغرها مسالك الفتنة أيا كانت ، ولم تنل منها رغائب الجاهلية ، بل ملكت السداد والرشاد والرحمة ، فكانت رحمة للعالمين .

وذلك هو المربي القدوة الانسان الذي نقى النفس ، ورفعها الى أعلى مدارج اليقين ، ولذلك كان ﷺ في التوارة والانجيل والقرآن موصوفاً بكلام الله عز وجل : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[2] .

---

(١) نساء أنزل الله فيهن قرآنا د . عبد الرحمن عميرة ص ١٤٥

(٢) سورة الفتح ، الآية (٢٨) .

حسن معاشرته ﷺ

فبالرحمة عمل ، وبالرحمة تعامل ولذا يقول ﷺ : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله »[1] وقال عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي »[2] فأبلغ الخير محله ، وأجمل في اللطف ، وحافظ على جلال الهيبة وسمو الوقار ، وفرض الشرع ، وتطبيق الإسلام وأوامر الله تعالى .

والحق ذروته وسنامه في سنة رسول الله ﷺ ، فكانت أفعاله مع أهله أبلغ في فهم معنى الآية الكريمة ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾[3] .

فكن رضوان الله عليهن يهجرنه ، ويغضبن عليه ﷺ ، ولم يأخذهن بذلك ، ما دام الأمر ليس فيه مخالفة صريحة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « اني لأعلم اذا كنت عني راضية ، واذا كنت علي غضبى » قالت فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : « أما اذا كنت عني راضية ، فإنك تقولين : لا ورب محمد . واذا كنت غضبى قلت : لا ورب ابراهيم » قالت قلت : أجل والله يا رسول الله . ما أهجر الا اسمك[4] .

ونحن نعلم أن تسعاً من النساء ضرائر اجتمعن له ﷺ ، يتنافسن في حبه ، وكل تطلب رضاه على ما هن عليه من طراز الحياة ونمط المعيشة ،

---

(١) الحديث رواه الترمذي والنسائي .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) سورة آل عمران : الآية « ١٣٤ »

(٤) صحيح مسلم ٤/١٨٩٠ كتاب الفضائل رقم الحديث /٢٤٣٩/

بالقياس الى أغنياء الأمة ، أو الأمم الأخرى فلم تكن حياتهن مع الزوج الانسان النبي ﷺ الا حياة الزهد والتقشف ، ومع ذلك كن يتدافعن لمرضاته ﷺ ، على كثرة الرجال ووفرة المال وحسن الأحوال ، في قريش وغيرها ولكن سعادة الأرواح والأبدان ، وطمأنينة النفوس وروابط المودة والرحمة هي التي ترفرف عليهن وتحملهن على أجنحة الأمل واليقين بالفوز برضا الله ورسوله ، وان عشن علـى شظف وخشونة عن عائشة رضي الله عنها قالت : لقد كان يأتي ، على آل محمد ﷺ الشهر ما يرى في بيت من بيوته الدخان قلت : فما كان طعامهم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . غير أنه كان لنا جيران من الانصار جيران صدق ، وكانت لهم ربائب . فكانوا يبعثون اليه ألبانها .

قال محمد : راوي الحديث وهو محمد بن عمر عن أبي سلمة ـ وكانوا تسعة أبيات[1] أي تسعة بيوت وأنه كان ضجاع رسول الله ﷺ أدما حشوه ليف[2] وهو جلد مدبوغ محشو بقشر النخل .

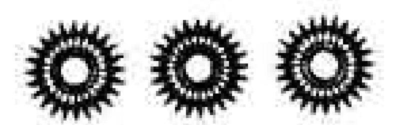
مع هذه الحياة الجافة مادياً ، الا أن الأرواح لم تعرف الجمود ، حتى لنجد العجب اذا عرفنا أن أم سليم تجني عرق النبي ﷺ حباً وبركة : فعن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها ، وليست فيه . قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتيت فقيل لها : هذا النبي ﷺ نام في بيتك ، على فراشك . قال فجاءت وقد عرق ، واستنقع عرقه على قطعة أديم ، على الفراش . ففتحت عتيدتها[3] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها . ففزع النبي ﷺ فقال : « ماتصنعين ياأم سليم ؟ فقالت : يارسول الله . نرجو بركته لصبياننا . قال

(١) سنن ابن ماجه ـ الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ٢٠٧ ـ ٢٧٥ كتاب الزهد ص ١٣٨٨ـ١٣٩٠ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار احياء التراث العربي بيروت دون ذكر سنة الطبع .
(٢) نفسه .
(٣) صحيح مسلم ١٨٠٦/٤ ـ ١٨١٧ رقمه /٢٣٣١/

« أصبت » وفي رواية أخرى قال ﷺ : « يا أم سليم ماهذا ؟ قالت : عرقك أدوف به طيبي »[1] .

ومع كل هذه الحياة في أمانة الرسالة ، وماناب من محاربة ومواجهة ومشكلات من قريش وغيرها من القبائل والدول العظمى آنذاك ، ومايترتب على تنفيذ المهمة النبوية في التبليغ ونشر الاسلام والاشراف على تنفيذ الأوامر الالهية وتطبيق النواهي فقد ظلت سفينة الحياة يقودها ﷺ ، ولم تؤثر كل الموجبات على معاملته لأزواجه ﷺ ، ولم يصح عنه عليه السلام أنه طلق امرأة قط ، الا حفصة بنت عمر ، ثم راجعها ، بأمر الله له بمراجعتها[2] ، وكل النساء اللواتي بقين عنده ﷺ ، انما بقين باختيارهن اذ نزلت آية التخيير وهي : ﴿ ياأيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾[3] .

هذه بعض من ذكريات مرت ، ولكنها ماثلة اذا طلبت ، حاضرة اذا دعيت ، متجددة خالدة أبدا ، من أرادها جاءته بالحياة السعيدة ، ومن جانبها غوى فهوى فما أفلح . وكفاه ﷺ تواضعا قوله لعائشة رضي الله عنها : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع . وفيه وما فيه من التطيب النفسي .



(١) جوامع السيرة النبوية لابن حزم ص ٣٣

(٢) سورة الأحزاب : الآيتان « ٢٨ ـ ٢٩ »

(٣) ام سليم : هي أم أنس وزوج النبي ﷺ .

مواقف النساء ورحمته ﷺ

لم يترك في نفس أية من زوجاته فراغاً ، ولا في حياتها شاغلاً الا الله تعالى عبادة ، ورسوله ﷺ هادياً وزوجاً يتدافعن لكسب رضاه طمعاً وحباً وتقرباً . وهن رضوان الله عليهن يعرفن أن الله تعالى أكرمهن غاية الإكرام ، بأن نسبن اليه بالزوجية فحصلن على الدرجات العلا عند الله ورسوله .

وما من شك في أن أية زوجة منهن لم تنس حياة الضرائر ، ولم تنس نفسها في أن تريد أن تستأثر بالزوج الرجل ، والزوج النبي ﷺ - ولكن الحقيقة أن رسول الله ﷺ كان فريداً في كل شيء ، مما جعل الكثير من النساء تعرض نفسها عليه للزواج ، وقد رأينا السيدة خديجة بنت خويلد وهي ما هي عليه من الشرف والمكانة والمال ، كيف طلبت الزواج به ﷺ .

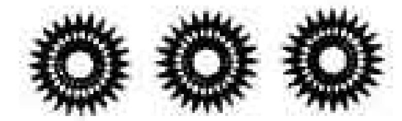
فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : أما تستحي المرأة تهب نفسها للنبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ﴾[1] قالت : فقلت : ان ربك ليسارع في هواك[2] فهل تهب امرأة نفسها لرجل عادي ؟ فقد تتمنى المرأة كلمة من رجل ، وأن تكون لها مكانة عنده ، ولكن اذا كانت في الرجل صفات استأثرت بقلبها وملكت حياتها وحبها .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥١ .

(٢) سنن ابن ماجة ٦٤٤/١ الحديث رقم /٢٠٠٠/

عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة الى النبي ﷺ فعرضت نفسها عليه فقالت : يا رسول الله : هل لك فيَّ حاجة ؟ فقالت ابنته ما أقل حياءها . فقال . هي خير منك . رغبت في رسول الله ﷺ فعرضت نفسها عليه"[1] . ولا غرابة في ذلك لأن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر الأنثى ـ راضية ـ أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل ، على أن يكون لها غيره كاملاً [2]. أن محمداً ﷺ ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال ، الذي تؤثر الزوجة أن يكون لها أي مكان في بيته ، على أن تكون لها مع غيره ، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة . . . "[3]



(١) نفسه ١/٦٤٥ الحديث /٢٠٠١/

(٢) سيدات بيت النبوة ـ بنت الشاطىء ٢٠٧

(٣) نفسه .

مكانة ذوي الرحم عنده ﷺ

قلت : لقد اعتادت المجتمعات أن تعجب بنابغة أو عالم التهم صفحات الكتب بحثا واطّلاعاً حتى ارتقى بعلومها الى درجة أكسبته عناية بأخباره واهتماما بنتاجه ، ولكن رسول الله ﷺ ، تأمل بعقله الثاقب المنير ، وقلبه العامر البشير ، فعرف مالم يصل الى عقول النوابغ ، ومالم يتناه اليه تأمل الفلاسفة ، ومالم يهتد اليه قلب رق أو ذهن أشرق .

الله علمه ﴿ إن هو إلى وحي يوحى ﴾(١) وأقرأه الكتاب وآتاه الحكمة . علمه من لدنه وما كان به انسانا يختزن الرحمة ، ورسولاً يهدي بالقرآن والوحي الإلهي ، ونبياً يختم به الأنبياء ، فاستغنى عن علم البشر ، وتأمّل الفلاسفة ونبوغ الشعراء ومنطق البلغاء .

لم يدع إلى علم مستغرب لا تطيقه البشر ، ولا بمستحدث تتخوفه النفوس ، ولم يسلك في حياته الا ماهو انساني أعد له الانسان في خلقه الأول . بل هي دعوة الى التراحم الذي خاطب العقل والبصيرة بما لا تتناقض مع ذاتها ، ولا العقل مع ذاته ، وان الفتح المحمدي للأرواح والنفوس ، انما أراد أن يجعل للعقل سلطانا يتلمس الحقيقة بذاته ولذاته ، ويعطي للبصيرة قدرة مستنيرة بالحق ، لا لتكلف الانسان مالا يستطيع ولا ليفرض معتقدات من غير دليل ، ولا استعان على شيء بالقسر أو بالاعجاز أو بخوارق العادات ، ولا بعلوم الغيبيات التي يقصر العقل عن بلوغ مراميها .

ونحن نتابع الشخصية الانسانية في النبي ﷺ ، لا شخصية النبي

(١) سورة النجم : الآية « ٤ »

لا بد أن لنعرف كنه الحقيقة الانسانية فيه ، ونستجلي وضاءة الجواب ، ولكن هيهات . انها معجزة ، كلما دلتنا مشكاة من أنوار شمائله ، نادتنا أخرى الى آفاق متجددة منيرة متلألئة ، حتى نطرق من جلال الأنوار ، وبهاء الشمائل ونقاء الخصال .

لقد عاشت زوجاته رضي الله عنهن في كنف رحمته ، وأهله كذلك ، فقد وفى حقوق الجميع ورعاها حق الرعاية وفرش لها بساط الود والرأفة واحترام رأيها وأجار من استجار بأحد من أهله ، توسيعا لمفهوم الآية الكريمة ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره﴾[1] وإقراراً بمكانة الرحم وصلته وما يستوجبه من حقوق وحفظ وصيانة .

لقد طلبت أم حكيم لعكرمة ـ ابن أبي جهل ـ أمانا وقد هرب الى اليمن فأمنه ، فخرجت اليه حتى قدم . فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ : « يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مهاجراً ، فلا تسبوا أباه ، فان سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ اليه . فلما رآه وثب اليه فرحا ، فوقف ومعه امرأته منتقبة فقال : يامحمد ، ان هذه اخبرتني انك آمنتني . فقال : « صدقت فانت آمن »[2] فأسلم عكرمة بعدها .

وفي موقعة بدر الكبرى كان في الأسارى : أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى : ختن رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب ، وكان الاسلام فرق بين زينب ـ رضي الله عنها ـ حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع ، الا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر ان يفرق بينهما ، فأقامت معه على اسلامها وهو على شركه ، حتى هاجر رسول الله ﷺ ، فلما سارت قريش الى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب في الأسارى يوم بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة التوبة : الآية (٦)

(٢) امتاع الأسماع للمقريزي ـ تقي الدين احمد بن علي ـ صححه وشرحه محمود محمد شاكر ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ ص ١/٣٩٢

ولما بعث أهل مكة فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في
فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة
رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها . فلما رآها
رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال : « ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها
وتردوا عليها مالها فافعلوا » فقالوا : نعم يا رسول الله . فاطلقوه وردوا
عليها الذي لها .

وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب رضي الله عنها عند
رسول الله ﷺ بالمدينة حتى فرق الإسلام بينهما ، حتى اذا كان قبيل الفتح
خرج أبو العاص تاجراً الى الشام ، وكان رجلاً مأموناً ، بمال له وأموال
الرجال من قريش ، أبضعوها معه ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته
سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً . فلما قدمت السرية
بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت
رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله ، فلما خرج
رسول الله ﷺ الى الصبح فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة
النساء : أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم
رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس هل سمعتم
ما سمعت ؟ قالوا : نعم قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء
من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، انه يجير على المسلمين أدناهم . ثم
انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال : « أي بنية أكرمي مثواه ،
ولا يخلصن اليك ، فإنك لا تحلين له .

عن عبد الله بن أبي بكر ، أن رسول الله ﷺ بعث الى السرية الذين
أصابوا مال أبي العاص فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قدعلمتم، وقد
أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فانا نحب ذلك، وان أبيتم
فهو فيء الله الذي أفاء عليكم ، فأنتم أحق به » فقالوا : يارسول الله بل
نرده عليه . فردوه عليه ...... حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه

شيئاً . ثم احتمل إلى مكة فأدى الى كل ذي مال من قريش ، ومن كان أبضع معه . ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً . قال : فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله . والله مامنعني من الإسلام عنده الا تخوف أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها اليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ[1] .

وقد أجارت أم هانىء بنت أبي طالب ـ أخت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ عبد الله بن أبي ربيعة عمرو بن المغيرة المخزومي والحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله ، وأراد علي بن أبي طالب قتلهما ، فهما مشركان . وشكت الى فاطمة عليها السلام علياً فلم تشكها ، وقالت لها لم تجيرين المشركين ؟ واذا برسول الله ﷺ رهجه الغبار[2] . فقال : « مرحباً بفاختة أم هانىء» فقالت : ماذا لقيت من ابن أمي علي . ما كدت انفلت منه . أجرت حموين لي من المشركين فتغلبت عليهما ليقتلهما . فقال : « ما كان له ذلك . قد أمنا من أمنت وأجرنا من أجرت » ثم أمر فاطمة عليها السلام فسكبت له ماء فاغتسل ، وصلى ثماني ركعات في ثوب واحد ملتحفاً به ، وذلك ضحى . ورجعت أم هانىء فأخبرتهما فأقاما عندها يومين ثم مضيا . وأتى آت فقال : يارسول الله . الحارث بن هشام وابن ربيعة جالسان في ناديهما في الملاء المزعفر[3] فقال : « لا سبيل اليهما قد أمّناهما »[4] .

هذه وغيرها كثير دلائل على أن الانسانية فيه ، هي الفاعلة في حياته

---

١) تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ١٥٠ ومابعدها .

٢) رهجة الغبار : آثار الغبار .

٣) مزعفر . الأصفر .

٤) إمتاع الأسماع للمقريزي ٣٨١/١

وعلاقاته ﷺ ولذلك خاطبه الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بما هو عليه من حال : ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾(١) فكان هذا دليلا على رقته وعطفه واحترامه ، وقيمة الرحم عنده ﷺ ، وهو القائل : « انه من لا يرحم لا يرحم »(٢) و« من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل »(٣) .

ولم يكن ﷺ يخفي ، كما يكن يخفي حزنه ولا حتى بكاءه ﷺ فعن أنس رضي الله عنه يقول حين كان يجود ابراهيم عليه السلام وهو ابن رسول الله ﷺ بنفسه وهو في النزع : بين يدي رسول الله ﷺ . فدمعت عينا رسول‌الله ﷺ . فقال : « تدمع العين ويحزن القلب . ولا نقول الا ما يرضي ربنا والله . يا ابراهيم انا بك لمخزونون(٤) .

ولا نريد أن نطيل في هذا ، ولكن لذة الحديث عنه ﷺ هي التي تدفع للاطالة ، فقد بكى على قبر أمه وهذا معروف ، وبكى في الصلاة من شدة الخشوع وبكى لزيادة شفقته ورحمته بأمته ، وبكى لسماع القرآن(٥) ولكنه بكاء الصبر والخشوع والرحمة والرأفة لا بكاء الجزع ولا يصدر عنه ما نهى الله عنه ، ﷺ(٦) .

---

(١) سورة آل عمران : الآية « ١٥٩ »

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل ج ٤ ص ١٨٠٩

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ٤/١٨٠٩ .

(٥) راجع أوصاف النبي للترمذي - باب ماجاء في بكاء النبي ﷺ ص ٣٣٨ ومابعدها .

(٦) نفسه .

في سرير الزوجية

في غرفة النوم تجتمع الرغبات ، وتتحرك الشهوات ، وتنفلت اللذائذ من اسار القيود التي تفرضها ظروف زمانية أو مكانية ، وفيها تظهر الأسرار الزوجية التي أحلها الله للزوجين ، فيطلع كل منهما على مايشتهي من صاحبه ، ويستمتع بما هو حلال له . ولكن المرأة بما هي عليه من الخجل والحياء ، قد لا تستطيع أن تجهر بما يجهر به الرجل ، وقد تخفي مابنفسها من كراهية لمنظر أو رائحة أو ملبس ، وهنا نجد الرسول ﷺ يحمل الرجل على أن يراعي ويحترم نظر المرأة وحواسها الأخرى ، والاستجابة لما يروقها في الشكل والمضمون ، فقال عليه الصلاة والسلام في هذا وهو كثير كثير ، وما من مسألة في أية علاقة زوجية أو روحية أو دينية حسية أو ذهنية أو عبادية الا ولها قواعد وآداب في السنة النبوية الشريفة في ضوابط لا يدانيها الشطط ولا يتسرب الوهن أو الجمود .

يقول ﷺ : « أربع من سنن المرسلين : الحياء ، والتعطر ، والنكاح والسواك[1] . ونكاد نرى أن هذه الأربع لها علاقة وثيقة بالحياة عامة وبالزوجية خاصة . ولكنها لازمة لغرفة النوم وسرير الزوجية حيث تتنادى الحواس لتتلمس في الآخر مايشيع فيها الرضى ويجذبها للتواصل ، ويعمق فيها الألفة والمودة للزوج شريك الحياة والروح والبدن والأحاسيس .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي .

كذلك فان النفس تغريها النظافة وتنعمها الزينة ، ويقتلها الاهمال مهما بلغت من قوة واعتداد ولذلك كانت وصيته ﷺ تحذيرا من وقوع الفراغ بين الزوجين وتضاؤل الرابطة الزوجية فقال : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا ، فان بني اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم »[1] .

وهنا نلمس أهمية الجانب النفسي ومايترتب على عدم النظافة والاهمال وسوء الحال ، لان الزوجين أقرب مايكونان في غرفة النوم وسرير الزوجية .

وأما لحظة الجماع وكيفيته من حيث هو تحقيق للشهوة واللذة ، والاستمتاع فانها تقوم أيضا على التكافؤ والاعتدال ، وتقضي أن يفهم كل منهما الآخر ، فلا يظلمه في شهوة ولا يقيده بادراك مايبتغي بأنانية شخصية ، لا تراعي التركيب الفيزيولوجي للآخر ولا تعذره حين لم يكن مثله وفي نفس الدرجة من الحال .

وبما أن كثيراً من الرجال يكون أسرع من المرأة في بلوغ النشوة فقد أمر الرسول ﷺ ، الرجل بمراعاة ذلك فقال : «إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ، فإذا سبقها فلا يعجلها » ذلك لأنها ترغب كما يرغب الرجل ويشتهي ، وتلذ كما يلذ الرجل وربما أكثر أو أعنف ، ولكن سيطرة الحياء عليها أكثر من الرجل وأشد .

يقول ﷺ : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها »[2] فكما أمتعته فبلغت به ذروة النشوة واللذة ، فعليه أن يبلغ بها ذلك لانها تطلب النشوة واللذة فإن لم تتحقق لها في العملية الجنسية فإنما وضعها على جمر من الرغبة ، وهذا يؤدي إلى حالة من القلق واضطراب الأعصاب ، وإذا ما تكررت فإنما هذه تؤثر على العلاقة الزوجية وتحدث شرخاً قد لايلتئم .

---

(١) أشرنا اليه سابقا .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ٧٣/١ رقمه ٥٤٨

ولحرصه ﷺ وحفاظاً على مشاعر المرأة وإنسانيتها ، وحقها في ما استجابت له ، قال ﷺ : « إذا جامع أحدكم امرأته فلا يتنحي حتى تقضي حاجتها كما يحب أن يقضي حاجته »(٣).

إن الارتواء الجنسي هو ما يرغبه الزوجان في حياتهما إضافة إلى الموجبات الأخرى والضروريات للحياة الزوجية ، والتي تتحقق بها « السكينة والمودة والرحمة » التي تقوم عليها الزوجية الناجحة ، وإن الباحث ليرى في الحديث النبوي الشريف كل ما يحتاجه من علوم الحياة الزوجية وفنها والعلاقات التي تقوم عليها .

وجزى الله عنا رسول الله ﷺ كل خير ، ورزقنا الهدى والسداد والخطوة بالسير على الصراط المستقيم .



---

(٣) نفسه رقمه ٥٤٩

جوامع الأدب التربوي

ليس من عبثيّة في الخلق الإنساني ، فقد كان حسن الخلق من أجل حسن العمل ، والتعامل .قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾(١) . من أجل غاية مرجوّة ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاًوهو العزيز الغفور ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ وذلك لإبصار الحقيقة واتباعها ، والبحث في الغاية والعمل بها ، والاستدلال على الطريق المستقيم والسير عليه .

وقال : ﴿ و لساناً وشفتين ﴾ من أجل النطق بالأدب ، وبيان روائح الأخلاق في النفس ، وإبلاغ الآخرين محاسن الأفعال والسرائر ، وإظهار المنهج الحياتي الذي انغرس في البواطن ، ليعلم عنه في الظواهر .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ فالبصر والبصيرة ، والعقل المتدبر ، والقلب الذي هذّبته العقيدة ، كلها لها وظيفة خلقت لأجلها ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾(٣) لأن العمل حاصل عن ناتج الأخلاق ، والسلوك القويم ، والأدب الحقيقي هو ماانطبعت به النفس فتأدّبت وكان سلوكها بياناً عن معارفها ، ولذلك كانت التربية استيعاباً للأصول الأدبيّة التي هي مغارس لنبات يرتجى ثمره ، ويظهر للعيان مسلكه ، ويفيد الجميع فعله ، وينتشر عقله وفضله ، فمن لم يستقم أدبه لم يستقم فعله ، ومن لم يجعل العلم طريقاً ضاع في غياهب الجهالة وآل أمره إلى الضياع .

---

(١) سورة التين الآية ٤ .

(٢) سورة الملك الآية ٢ .

(٣) سورة الأسراء الآية ٣٦ .

ولو تأملنا الرسالة النبويّة الإسلاميّة في القرآن الكريم ، لوجدناها تحتوي جوامع الأدب لمجمل الحياة ولذلك قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين منوااستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[1] وهذه الحياة المشار إليها في الآية الكريمة ، إنما هي حياة الأدب والدعوة لها بالأخلاق ، وهذه الحياة في أركانها الثابتة الإيمان ، والعلم ، والأدب ، والأخلاق . فهي مصادر الإشعاع والطاقة ، وبواعث الاستقرار في الحياة ، وهذه الشمائل هي مجموعة في أحاديث الرسول ﷺ وأخلاقه ، والذي كان مع نبوّته وعُلوّ مقامه يقول : «اللهم كما أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقي»[2] ويقول : « اللهم جنبني منكرات الأخلاق » أو « اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق »[3] و نحن نعلم من سيرته أنه كان « ﷺ خُلُقه القرآن »[4] فهو الأشدّ حرصاً على الاستمساك بالعروة الوثقى « لا انفصام لها » وهو الذي تزين بالأخلاق العلا ، وحين أكمل الله تعالى خلقه وصفه فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[5] وقال ﷺ : عن نفسه « أدبني ربي فأحسن تأديبي »[6] فأجمل المعنى بجوامع الكلم ، وأوجز مهمة الرسالة التي جاء بها ﷺ فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[7] وبين للناس جميعاً أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها »[8] .

وبالرغم مما أوتي ﷺ من الحكمة وجوامع الكلم واختصار المعاني ،

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٦٨ ، ١٥٥

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات « ١٢٧ » باب دعاء أم سلمه رقم ٣٥٩١ وفيه زيادة « والأعمال والأهواء » .

(٤) سبق : صحيح مسلم ٥١٣/١ رقم ٧٤٦ من حديث طويل .

(٥) الحديث في الجامع الصغير ٤٢/١ رقم ٣١٠ .

(٦) الجامع الصغير ٤٢/١ رقم ٣١٠

(٧) الموطأ لابن مالك في باب حسن الخلق ٨

(٨) الجامع الصغير ٢٥٣/١ رقم ١٨٨٩ بلفظ « إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها .

فإنه ﷺ كان المقصود الأول بالتهذيب ، ليجمع نوره ، ثم ليشرق على الخلق كافة ولو أمعنا النظر في الآيات القرآنية لوجدنا عدداً منها يشير إلى التأديب والتهذيب لرسول الهدى الذي به اكتمل الهدى .

فكيف كان أدبه وخلقه القرآن ؟ لقد اجتمت الآداب كلها في كلمات قليلة في حروفها كبيرة في معانيها ، جليلة في مسلكياتها ، يقول تعالى مبيناً ثلاثة قوانين دائمة صالحة لكل زمان وكل مكان وكل أمة وفرد وشعب ومجتمع ، تهذبها وتؤدبها وتصوغها صوغاً جديداً ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ﴾ ففي أخذه العفو صلة من قطعه والصفح عمن ظلمه . والأمر بالمعروف تقوى الله وغضّ الطرف عن المحارم . وصون اللسان وإنطاقه بما يرضي الله والبشر بمحاسن الأخلاق . وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه عن مجاراة السفيه ومنازعة اللجوج .

ثم أراد له التواضع واللين ، لكي يستوعب الجميع ممن دعوا إلى الله على اختلاف منابتهم ومشاربهم وأهوائهم فقال تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾[1] .

ولما انطبع ﷺ وكان خلقه القرآن قال له تعالى : ﴿ ولو كنت فظاًغليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾[2] وأوصاه تعالى بالتحلّي بالصبر فقال : ﴿ واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[3] وفي التعامل باللين والرفق قال تعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، ومايلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا كل ذو حظ عظيم ﴾[4] .

وقد أراد الله تعالى لنبيّه التوسط والاعتدال في بعض الأعمال

---

(١) سورة الشعراء : الآية « ٢١٥ »

(٢) سورة آل عمران : الآية « ١٥٩ »

(٣) سورة لقمان : الآية « ١٧ »

(٤) سورة فصلت : الآية « ٣٤ »

والأفعال ، مما يصلح أن يكون دستوراً للحياة البشرية كلها فقال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾[1] وفي ذلك نهى عن التقتير ، ونهى عن التبذير ، وأن المندوب إليه هو الاعتدال في الانفاق والاعتدال في الاستهلاك ، وقال عز وجل : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[2] .

فلما وعى عن الله عز وجلّ وكملت فيه هذه الآداب قال الله تبارك وتعالى للعالمين كافة وللعرب خاصة ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[7] .

وقد جاء وصفه ﷺ بما أدبه ربّه في أبلغ الوصف مع أصحابه رضوان الله عليهم كما ورد في التوراة والإنجيل عند الأمم السابقة عليهم فقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاًمن الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[4] .

ويقول تعالى مبيناً أهمّيّة العفو وضبط النفس فقال : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس و الله يحب المحسنين ﴾[5] .

وأما في تقصّي الحقيقة وبيان الأمور قال تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً من

(١) سورة الإسراء : الآية « ٢٩ »
(٢) سورة الفرقان : الآية « ٦٧ »
(٣) سورة الفتح : الآية « ٢٩ »
(٤) سورة الفتح : الآية نفسها .
(٥) سورة آل عمران : الآية « ١٣٤ »

الظنّ ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾[1].

وفي أدب التحدّي للكافرين والاصرار والثبات على الإيمان والهدى قال تعالى : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾[2].

تلك نفحات من فيوض الرحمة الربّانيّة خاطب بها نبيّه محمداً ﷺ ، ليعلمه المسلمون جميعاً ، ولتكون لهم منهاجاً يقيهم الزلل ويعصمهم عن مواقع الانحراف .

إنما هي رحمة من الله دلّ عليها أصحاب العقول الواعية العارفة طريقها ، وهي التي تتأمّل في الكون والحياة والعلاقة بينهما وبين الإنسان ، ووجود الإنسان ومهمته في الحياة ودوره فيها ، وهو الإنسان المستخلف في قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[3]... والخليفة لا يمكن إلا أن يسير في طريق الاستخلاف الحقيقي الذي يضبط السلوك ، ويحدد الفعل ، ويرسم الاتجاه ، ويدل على النتيجة وكلها مبثوثة في ثنايا صفحات القرآن الكريم ولذلك قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[4]... مما يقتضي الوقوف أمام الآيات القرآنية للتأمل والتدبر والعمل .

وعلى الإنسان الذي يريد أن يحيا حياة السعادة والهناء ، أن يفتح كتاب الله الذي جمع علم الأولين والآخرين ، وفيه الأدب وفيه الحياة ، والعاقل وحده من عرف طريقه إلى مستقبله وسار إليه .

---

(١) سورة الحجرات : الآية « ١٢ »

(٢) سورة الملك : الآية « ٢٩ »

(٣) سورة البقرة : الآية « ٣٠ »

(٤) سورة النساء : الآية « ٢٤ »

القدوة في التربية

عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج رسول الله ﷺ ، فلما كان بحرّة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح به أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال : جئت لأتبعك وأصيب معك ، فقال له : « أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا . قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك »[1].

ومما أدّب به أمته ليحضها على مكارم الأخلاق وإصلاح الأنفس ، وحسن المعاملة بين الفرد والمجتمع قال ﷺ : « أوصاني ربي بتسع وأنا أوصيكم بها : .. « أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبراً »[2].

وفي نهيه ﷺ أمته عن الجدل والتبذير قال : « إن الله كره لكم ثلاثا قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال »[3]

وفي أدب الجلوس في الطرقات قال ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات ، فإذا أبيتم إلّا المجالس ، فأعطوا الطريق حقها . . . . « غض البصر ، وكفّ الأذى ، وردّ السلام ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر »[4].

---

(١) الحديث صحيح مسلم ١/١٤٥٠ رقمه ١٨١٧ .

(٢) نفسه .

(٣) صحيح البخاري ٢/٥٣٧ رقم ١٤٠٧

(٤) البخاري ٢/٨٧٠ رقم /٢٣٣٣/ ومسلم في باب النهي عن الجلوس في الطرقات رقم /٢١٢١/

وفي أدب النوم في البيت قال ﷺ إذا استجنح الليل ، أو : كان جنح الليل ، فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلّوهم ، وأغلق بابك واذكر اسم الله ، واطفىء مصباحك واذكر اسم الله ، وأوْكِ سقاءك واذكر اسم الله وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تَعْرِضَ عليه شيئاً »[1].

وفي رواية مسلم « فإن الشيطان لايفتح باباً مغلقاً » وهذا دليل رحمته ﷺ بالأمة ، وفيه الآداب التي هي سبب للسلامة من إيذاء الشيطان ، وجعل الله عزّ وجل هذه الأسباب أسباباً للسلامة من إيذائه ، فلا يقدر على كشف إناء ، ولا حلّ شقاء ، ولا فتح باب ، ولا إيذاء صبي وغيره ، إذا وجدت هذه الأسباب .

ويبين ﷺ حرصه ، وخوفه على الصبيان في ذلك الوقت من إيذاء الشياطين لكثرتهم حينئذ . وهذا دليل قوله تعالى بحقه ﷺ وتعليماً للأمة ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولّوا فقل حسبي الله لاإله إلاّ هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم﴾ .

وعن شرار الناس وسيئي المعاملة قال ﷺ « ألا أنبئك بشر الناس ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : « من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده » ثم قال : « ألا أنبئك بشرٍ من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : « من يبغض الناس ويبغضونه »[2]

---

(١) رواه البخاري ٣/١١٩٥ رقم /٣١٠٦/ ومسلم في الأشربة باب : الأمر بتغطية الإناء وإيكاء الشعاء رقم ٢٠١٢

(٢) الجامع الصغير ١/٣٩١ رقم /٢٨٨٤/

وفي الانفاق وتزكية المال وإعانة الفقراء قال ﷺ « حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء ».

وقال ﷺ في حرص المرء على المال « يقول ابن آدم : مالي مالي وإنما له من ماله ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو وهب فأمضى ».

وقال ﷺ في حرص الناس على المراتب والمناصب ، وموقف المسلم من المسؤوليّة وتبعتها « ستحرصون على الإمارة ، فنعمت المرضعة ، وبئست الفاطمة ».

وقال ﷺ في مسألة القضاء والعدل فيه « لايحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان ».

وفي سلامة المنطق ووجوب اتباعه قال ﷺ « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم »

وقال ﷺ في وجوب خفة الزيارة للآخرين « زر غبّاً تزدد حبّاً ».

وقال ﷺ في وجوب الرهبة وقوة صاحب الشأن في البيت ، لكي يحسب حسابه « علق سوطك حيث يراه أهلك »

وفي أدب المجالس قال ﷺ « لا يقم الرجل للرجل عن مجلسه ، ولكن ليوسع له ».

وقال ﷺ « إن خرجت عليكم وأنتم جلوس ، فلا يقومن أحد منكم في وجهي ، وإن قمت فكما أنتم ، وإن جلست فكما أنتم . فإن ذلك من أخلاق المشركين ».

وقال ﷺ في التدين باعتدال ورفق « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ».

وقال ﷺ « الكذبُ مجانبُ الإيمان ».

وفي التواضع قال ﷺ « من تواضع لله رفعه الله ».

وقال ﷺ « يقول الله تبارك وتعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منها قصمته وأهنته »[6]

وقال ﷺ في المخاطبة ، والرحمة بالآخرين ومعاملتهم : « أطيبوا الكلام ، وأفشوا السلام ، وأطعموا الأيتام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ».

وقال ﷺ : « إن أبخل الناس الذي يبخل بالسلام ».

وفي أدب الدخول والاستئذان : استأذن رجل من بني عامر على النبي ﷺ وهو في بيت ، فقال : ألجُ ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان ، وقل له يقول : السلام عليكم ، أدخلُ ؟ .

وقال ﷺ : « الاستئذان ثلاثة ، فإن أذن لك وإلا فارجع »...

وفي أدب المؤاكلة قال ﷺ : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ».

وفي صون المؤمن ووجوب المحافظة عليه قال ﷺ : « سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ».

وفي القيام على الأهل والولد قال ﷺ : « العائد على أهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله ».

وفي قيمة العمل قال ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم أحبُلَه فيحتطب بها على ظهره ، أهون عليه من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه ».

وفي معاني القرآن الكريم قال ﷺ حين قيل له : عجل عليك الشيب يا رسول الله قال : « شيّبتني هود وأخواتها » .. يعني سورة هود وأخواتها . ويكفي أنه قال تعالى : ﴿ ولكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ... وقال ﷺ : « تركت فيكم ماإن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتي » ...

وقال ﷺ : « ماقلّ وكفى خير مما كثر وألهى »

وفي وحدة المجتمع الإسلامي « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

وفي القوة قال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

وفي وجوب الحذر من الغدر ، قال ﷺ : « لا تجن يمينك على شمالك ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

وقال في التقوى بالمجتمع : « المرء كثير بأخيه » .

وقال ﷺ في أدب الحديث والاستعانةعلى قضاء الحاجة « افصلوا بين حديثكم بالاستغفار ، واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وقال ﷺ في الصحبة والاطمئنان لها : « أفضل الأصحاب من إذا ذكرت أعانك ، وإن نسيت ذكرك » .

وقال ﷺ في التعامل مع السلطان ووجوب احترامه في الإمامة : « لا يُؤَمّ ذو سلطان في سلطانه ، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه » .

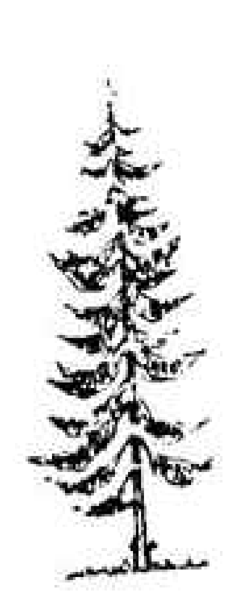
وقال ﷺ في تدوين العلم وحفظه « قيدوا العلم بالكتابة » ... وقال ﷺ في أخلاق التاجر المسلم « ماأملق تاجر صدوق » .

وقال في أنّ الصديق يسمو بصديقه والصاحب بصاحبه « الصاحب رقعة في قميصك فانظر بم ترقعه ».

وقال في صفة الجاهل « الجاهل يظلم من خالطه ، ويعتدي على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، ويتكلم بغير تمييز ، وإن رأى كريمة أعرض عنها ، وإن عرضت فتنة أردته وتهوّر فيها ».

وقال ﷺ : « وإذا لقيت اللئيم فخالفه ، وإذا لقيت الكريم فخالطه ».

وقال ﷺ في نظافة الفم والأسنان : « نظفوا مسالك القرآن ».



لكل حقوقه

قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حرِيص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[1].

والعنتُ : بفتحتين : الإثم . والعنت الوقوع في أمر شاق ، والمتعنّت : طالب الزّلّة[2]. بهذا تكتمل صورة القدوة عملياً ، حيث أعطاه الله صفتين من صفات الجلال الأعلى : الرأفة والرحمة ، ولم تمنح لأحد غيره ﷺ .

فمعنى : الرؤوف كما يرى الزجاج هو ذاته معنى الرحيم . فيقول : معنى « لا تأخذكم بهما رأفة » أي : لا ترحموهما فتسقطوا عنهما ماأمر الله به من الحد . ومن صفات الله عز وجل الرؤوف ، وهو الرحيم »[3].. ويقال : إن الرأفة ، والرحمة ، واحد . وقد فرّقوا بينهما أيضا ، وذلك أن الرأفة : هي المنزلة الثانية . يقال : فلان رحيم ، فإذا اشتدت رحمته فهو رؤوف »[4].

والرحيم : ذو الرحمة . قال الجوهري : « الرحمن والرحيم » اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما نديم وندمان . وهما بمعنى . ويجوز تكرير

---

(١) سورة التوبة : الآية « ١٢٨ »

(٢) مختار الصحاح « عنت » ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧

(٣) الأزهري ١٥/٢٣٨

(٤) تفسير أسماء الله الحسنى . لأبي اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج /٢٤١ ـ ٣١١/ تحقيق أحمد يوسف الدقاق طبعة دار المأمون للتراث ط ٢ ١٣٩٩/١٩٧٩

الإسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد كما يقال : فلان جاد ومجد(١)

والرأفة : أشد الرحمة(٢).. والرحيم : خاص في رحمته لعباده المؤمنين بأن هداهم إلى الإيمان ، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذي لا ينقطع(٣).. فتكامل التسمية والصفة والمسلك والهدى والنور والفوز العظيم انتظمت في سلك الجلال الخَلقيّ والخلقي للنبي ﷺ ، فما صدرت عنه إلاّ حكمة ، وماسلك إلا هدى ورشاداً وسداداً ، فكان في بيانه الصراط المستقيم الذي بيّنته حكمة النبي ﷺ فكان هادياً وكان بشيراً ، وكان نذيرا . وكان بالمؤمنين الرؤوف الرحيم ، الذي أوضح الخفايا ، وأضاء الزوايا ، وأوضح الشرعة والمنهاج ، فمن استمسك بها ، فقد استمسك ﴿ بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾(٤).

وبعد : فما زال حديثنا عن الحياة الزوجية ، ولذلك نستنير بوقفة حول الحقوق المترتّبة على كل زوج وزوجة ، لأنّه ليس لأحدهما حقّ التصرّف المطلق بالآخر ، ولأن الحق المنزل بالرسالة للجميع وليس لواحد دون الآخرة . فيقول ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »(٥)... ولكن هذا لا يعني سجود العبد المملوك إلا لطاعة الله فيما يرضي الله ، لان هذه الحالة تقتضي الالتفات إلى أحاديثه ﷺ ، والتي تقضي بالتعامل الأخلاقي في أبدع صورة وأشكاله ونواحي تطبيقاته على الحياة العمليّة ، ولأن المسلم يريد أن يكون مؤمناً كاملاً ، والمؤمن الكامل هو الذي يلتزم قول النبي ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً

---

(١) لسان العرب « راف » .

(٢) مختار الصحاح .

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٢٨

(٤) سورة التوبة : الآية « ١٢٨ »

(٥) انفرد به الترمذي ٣/٤٦٥ رقمه ١١٥٩

أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً »[1].

وقال ﷺ في حجة الوداع « ألا واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنما هنّ عوان عندكم ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك ، إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة . فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرّح . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .

ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأما حقكم على نسائكم : فلا يوطئن فراشكم من تكرهون ، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهنّ في كسوتهنّ وطعامهن »[2].

ومعنى الحديث : قوله ﷺ « عوانٍ » أي : أسيرات جمع عانية ، بالعين المهملة وهي الأسيرة ، والعاني : الأسير .

شبه الرسول ﷺ ـ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج بالأسير ، « والضرب المبرح » : هو الشاق الشديد وقوله ﷺ « فلا تبغوا عليهن سبيلا » أي : لا تطلبوا طريقاً تحتجون به عليهنّ وتؤذونهن به »[3] .

إنه أسر الحياة والتقوى والعرفان بالزوجيّة ، التي تكتمل بها المتعة والعفة ، وتنضج المحبة فيقوم كل منهما على حاجة الآخر دون تأفف أو تردّد ، وقد عرفنا كيف كان يقوم ﷺ على حاجة أهله .

والمرأة بما فيها من الضعف الجسمي والفيزيولوجي تحتاج إلى مداراة ومراعاة وحب ورأفة وودّ ورحمة وإعانة فالرسول ﷺ يقول : « إن المرأة

---

(١) رواه الترمذي ٤٦٦/٣ ورقمه ١١٦٢ ، وأبو داود ٢٢٠/٤ رقمه ٤٦٨٢

(٢) الترمذي ٤٦٧/٣ ورقمه ١١٦٣

(٣) رياض الصالحين للإمام النووي ٦٣١ ـ ٦٧٦ تحقيق الاستاذ شعيب الأرناؤوط ص ١٦٣ طبعة مؤسسة الرسالة الطبعة السادسة عشر ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨

كالضـــلع الأعوج إن ذهبت تقيمهــا كســرتهـا. وإن تـركتهـا استمتعت بها على عوج »[1] وواضح هنا العوج المقصود : أي على ماهي عليه من الضعف وعدم القدرة على التحّمل للمشقات ، وليس اعوجاج التصّرف أو المسلك ، ورسول الله ﷺ يقول : « كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت »[2] ، و« أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله »[3] وقال ﷺ : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله ، إلا أجرت بها ، حتى ماتجعل في في امرأتك »[4] وكفى الله المؤمنين دليلاً قوله : ﴿ ولكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ، ﷺ وآله وسلم .



(1) الترمذي ٤/٤٩٤ رقمه ١١٨٨
(2) سنن أبي داود ٢/١٣٢ ورقمه ١٦٩٢
(3) رواه مسلم في صحيحه ٢/٦٩٢ ورقمه ٩٩٤
(4) صحيح مسلم ٣/١٢٥٠ - ١٦٥١ رقمه ١٦٢٨

وقفة أخيرة تحت الظلال

أمام محاسن الارشاد ، ولطائف المعاني ، وقطوف الهدى ، وقفت مصلياً على النبي ﷺ ، وكانت وقفات عند أقباس متجددة لا تنتهي حتى تبدأ دورة الحياة من جديد طالما « لا اله الا الله محمد رسول الله » تبعث النور في أرجاء الكون ، وتعمر القلوب وتفتح الأرواح فتحاً ربانياً ، تحولها الى جنان خضراء تفوح بالايمان وتشرق بأنوار اليقين .

لقد كان طريقي فيها رأيت الى ماعلمت ، وتبقى المكنونات هناك في الأعلى وراء الزمان ، وأبعد من المكان وأعلى من تصور البشر .

لم تحط فيه السير ، ولم تنفذ الى حقيقة حضرته عقول البشر ، ولم تنفذ الى الجوهر أبعاد الفكر ، وماأحاط به علما الا من خلقه وقال : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ وقرن اسمه باسمه .

فلألفاظه ﷺ ، حركة الآدمي في روحانية تسبح الى دواخل النفس وعوالمها وتتناهى الى العقل في لبّه وقاعه ، فتجذبها جذب اللطف الخفي الذي يبعث السكينة والطمأنينة في ساعة التسبيح لجلال الله .

ان هي الا رشفات من حوض لا ينتهي صفاؤه ، ولا يتوقف عطاؤه ونظامه ، ذلك لمن أرادها حياة ، وسعادة في الدارين ، ونظر فيها يقتضيه كلامه .

فاني وقفت دالا بما عرفت ، واثقا مااستطعت ، فان كنت قد بلغت المراد فعلى الله الثواب ، وان كنت لم أبلغ فكفاني أني أبردت النفس تحت الظلال .

وما رجوت في ذلك الا رضوان الله ورسوله ﷺ .

أحمد مصطفى الحسن

المحتوى

الفصل الاول
بداية لابد منها ٢٣
وقفة قصيرة ٢٨
من خالفو حق عليهم القول ٣٣
مكانة المرأة قبل الإسلام ٣٩
نكاح الجاهلية ٤٣
في فلسفة الزوجية والجنس ٤٤
المرأة الانسانة في الإسلام ٤٩
بين يديه ﷺ ٥٤
الحمل ومراحله في القرآن الكريم ٥٧
صحة الحامل وغذاؤها ٦٤
الولادة ــ التسمية ــ الرضاعة ٦٨
الرضاعة والطفولة ٧٣
في التربية ٩١
التربية عند الإمام الغزالي ٩٣
الفصل الثاني:
أفضل المعاملات في الحياة الزوجية ١٠١
القناعة ١٠٤
معنى الزواج لغة واصطلاحاً ١٠٨
في الزواج وأهميته ١١٠
الحياة الزوجية (سكينة ــ مودة ــ رحمة) ١١٦
الحرث والزرع ١٢٠
ما يكره الرجل في المرأة ١٢٤
المرأة الزوجة في القرآن الكريم ١٢٦
القيم الجمالية للمرأة في الحديث الشريف ١٢٩

تعليم وتعلم ١٤٢
الأسرة في القرآن الكريم ١٤٥
أحاديث متفرقة في صفة الرسول ﷺ ١٥٠
الخطبة (كيف ـ لماذا؟) ١٥١
المرأة إنسانة مكرمة عند رسول الله ﷺ ١٥٤
الطفولة والرجولة القدوة ١٥٧
والرجل القدوة ـ أوصافه ١٥٨
عظمة في كل شيء ١٥٩
منطقه ﷺ ١٦٢

الفصل الثالث:

الزوج القدوة قبل البعثة ١٦٥
وفاؤه ﷺ ١٦٧
الارادة والارادة الجنسية في الإسلام ١٦٩
فصاحة فريدة ١٧٣
معاملته ﷺ ١٧٦
أخلاقه ﷺ في بيته مع زوجاته ١٧٦
تحمله لهن ﷺ ١٨٠
حسن معاشرته ١٨٣
مواقف النساء ورحمته ﷺ ١٨٦
مكانة ذوي الرحم عنده ﷺ ١٨٨
في سرير الزوجية ١٩٣
جوامع الأدب التربوي ١٩٦
القدوة في التربية ٢٠٢
لكل حقوقه ٢٠٧
وقفة تحت الظلال ٢١١

هذا الكتاب لم يكن كما جرت عليه عادة المؤلفين في سيرة الرسول ﷺ ، وهم بين مؤرخ لزمن ، أو متابع لواقعة ، أو مستقرىء لحدث · وإنما جعلته ـ ما استطعت ـ بحثاً علمياً يحاور العقول ، ويسبر أغوار النفس الإنسانية ملتفتاً إلى علم النفس حيناً ، وما تستلزمه التربية الإسلامية حيناً آخر ، بما في ذلك الطبع والفطرة والأخلاق ، وما يمكن أن يؤثر فيها من دعاوى أو فتاوى ليست من فطرتنا ولا أخلاقنا وطباعنا العربية الإسلامية ، القائمة على مكارم الأخلاق ، والمثل العلا ·

تم بعون الله